إبراهيم أحمد
لماذا تبكي
كلما رأيت
زهرة الأقحوان؟
قصص
ألف ياء
Alf Yaa

لماذا تبكي
كلما رأيت
زهرة الأقحوان؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المؤلف: إبراهيم أحمد
الكتاب: لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان (قصص)
صدرت النسخة الرقمية: تموز/ يوليو2026
الطبعة الأولى حزيران 2022، اتحاد الأدباء ـ العراق.

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، MobiوePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إبراهيم أحمد

لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟

55 قصة قصيرة

قصص

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المحتويات

1. وصفة الطبيب الأطرش 9
2. حبل السُر ه 12
3. الزهرة السودا ء 15
4. الجاحظ وكتبه! 19
5. الجاحظ والنساء! 22
6. بلبل الإذاعة في شدوه الأخير 27
7. النسر في المطبخ 35
8. قلم الشاعر 38
9. شال فتاة حسناء، نار في القلب! 40
10. الذين كانوا 42
11. مزاج الطيور 44
12. أنا وقطة ديكارت، وغليون ماركس! 47
13. للحمامة مخالب! 57
14. عسل الحكمة! 60
15. انتظار 63
16. وصية! 65
17. أصوات بعيدة 68
18. النوم على المكنسة! 71
19. قصيدة تبحث عن قائلها 74
20. أين هم الشهداء الآن؟ 77
21. حيث ما تقتنع الوردة! 79
22. ثياب ضيقة! 81

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

23. الصديقان! 84
24. الطبيب وقاضي القضاة! 91
25. أقراص الأحلام! 94
26. عطر اسمه ضرطة السلطان! 98
27. انظر يميناً، انظر يساراً! 100
28. النساء يسرن مسرعات 103
29. أغنية 106
30. سمك في ذاكرتي 109
31. لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟ 111
32. السير خلف الجنازات! 116
33. أيها الطفل خذها! 119
34. جئتك لنبكي معا! 121
35. ولكن، أين هو البحر؟ 124
36. تدريبات مسرحية 126
37. القيثارة السومرية 128
38. الحب والكناس! 130
39. البيت المهجور! 132
40. عازف العود 134
41. فقط أراد أن يرى وجهه! 136
42. الفارس المغوار! 138
43. عودة النسر! 141
44. لعبة المغني 143
45. تذكر في غير أوانه! 146
46. هل كان يغني؟ 149
47. نظرة واحدة، العمر كله! 152

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

48. الحياة مرحة أحيانا! 155
49. القبعة! 157
50. كلاب الغجر! 159
51. طيور مهددة بالانقراض! 163
52. مقهى العطاسين! 165
53. الوداع الأخير! 169
54. مدينة السهام 172
55. حامل إبريق الكنيف سلطاناً 174

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وصفة الطبيب الأطرش

في تلك الأيام كان طبيب بلدتنا الصغيرة "أيس" يعاني من صمم؛ يقال إنه خفيف أو جزئي، ولا يعتبره هو نقصا بل امتيازا يفاخر به؛ قائلا:" الصمم يلازم عادة الأطباء النطاسيين في العالم، بل الفلاسفة والحكماء العظام، ويذكر لنا أسماء أجنبية لا ندري إن كانت لأطباء أو فلاسفة أو لأشباح، أو لأكاذيب! أكان يسمع جيدا ويدعي الصمم الخفيف تاركا لنفسه مساحة للوحي والإلهام والتلاعب بأحوالنا؟ لا ند ري! ولكن ثمة من يقول أن وجوده بيننا نعمة إلهية كبرى! فما كنا نعرف قبله غير وصفات البدائيين والدجالين والمشعوذين وأدعياء الكرامات والمعجزات الدينية والدراويش والحلاقين أحيانا!

الذين أرسلوا أكثر من نصف أطفال بلدتنا التي استبدلت السعادة بالطيبة، ليكونوا طيورا في الجنة! كان هذا الطبيب كلما سمع عن استياء الناس منه يهددنا بأنه سيطلب نقله إلى بلدة أخرى ويحرمنا من حكمته الباهرة، ولمساته الشافية، ومن أين للحكومة طبيب ترسله ليحل محله في بلدتنا البعيدة عن العاصمة مئات الكيلومترات؟ لكننا صرنا نسمي طبيبنا هذا بالطبيب السميع العليم جريا على عادة لدينا بأن نسمي صاحب العاهة بنقيضها تأدباً وتهذيباً ولياقة! وكنا نقول في سرنا ما ابتلينا بطبيبنا الأطرش إلا لمعاصٍ أو موبقات ارتكبها أسلافنا وإن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الآتي سيكون وبالاً وكوارث! فنلوذ بالصمت كي ننسى جراحنا! وبينما تسببت وصفاته المختلة أو الخاطئة بموت الكثيرين أيضا خاصة من الأطفال والحوامل والمسنين، لم أمت أنا ربما لحكمة ما؛ لكنني عانيت منه كثيرا، وقد عجبت لذلك وأنا الرجل المسن كثير العلل والأمراض والمحشو بنزوات وشهوات لا تتناسب وعمري! ولكن لا مناص لي من التردد على المستوصف الحكومي الذي هو طبيبه ومديره ومعه ممرضة حسناء، كان وجهها الصبوح ونظراتها الفاتنة عزاءنا. وممرض ثرثار مرهف السمع يزيد بصخبه الأمور سوءا! كنت إذا شكوت لهذا الطبيب من صداع يلازمني؛ وصف لي دواء للبواسير فتهتاج لتحرشي بها، وتعاقبني بقسوة. وإذا شكوت له ضعف بصري أعطاني دواء لأنفي، أصابه بحساسية جعلتني دائماً كالمزكوم، وإذا شكوت له آلام ظهري أعطاني دواء لسلس البول، فاقمه كثيرا، وإذا شكوت له من وجع في القلب أعطاني دواء يصيبني بالإسهال لأيام عديدة! وفي كل مرة أعاتبه، أو ألومه يتعلل أن صوتي كان خافتا، وإنني أتصنع التهذيب في الكلام والنطق!

مصيبتي معه أنه قبل فترة أصاب في وصفته الطبية، وليته ظل أطرش كعادته!

كنت على موعد مع حبيبتي التي فارقتها منذ أيام شبابي، ربما قبل خمسين عاماً أو أكثر، وقد احترت بماذا ألقاها في خلوتنا المنتظرة التي اتفقنا عليها كعجوزين نريد أن نقطف آخر زهرة من غصن العمر الذي فطنا فجأة إلى يباسه وقرب انكساره.

استبعدت أن أطلب منه دواء يمنحني القوة على صعود السرير وقد صار بالنسبة لي أعلى من جبل، وأبعد من غيمة بددتها الريح! ثم هو سيخيب أملي وقد يصف لي دواء يطرد الغازات، كيف سيكون هواؤنا مع ا؟ وما نريده عطور حدائقنا القديمة التي طالما اختلسنا النظرات فيها حين كانت بلدتنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الصغيرة بستانا نطلق أرواحنا فيه مع الطيور؛ قبل أن تعرف هذا الطبيب الغريب الأطوار! طلبت منه دواء يرطب عيني الجافتين، وأخفيت عليه غايتي طبعا. كنت في الحقيقة أريد دموعا! إذ لا يليق بمن يلتقي حبيبا قديما حتى لو كان هاجرا، أن لا يحمل معه دمعة أو دمعتين يلقيها لها كأثمن لؤلؤتين!

ورغم خشيتي أن يكون دواءه مهيجا لحصى الكلى القريب من وجع الحب أو الفراق لكنني جازفت ورحت اصرخ بأذنه بما أريد. دهشت كثيرا! فما أن تناولت حبة واحدة من دواءه حتى راحت دموعي تتدفق كالسيل وقد أزال صخور الوادي! جلست منتظرا حبيبتي التي طال فراقها متذكرا وجهها الفاتن، ببهائه القديم وقد استعصى على رياح الزمن الوعر الطويل، ولم يترك عليه غضونه ومصائبه، وها هي الساعات والأيام والسنين تمر دون أن تطل، حتى صرت أظن إن موعدها كان وهما، وحلما من الأحلام، أو إنه إحدى التأثيرات الجانبية لأدوية طبيبنا الأطرش وقد أثرت على قواي العقلية! ما زادني حيرة كيف أنه سمعني هذه المرة، وأعطاني دواء لا تتوقف معه دموعي لحظة، بل تزداد حرقة وتدفقا على مر الأيام، حتى صرت أخشى أن أصاب بالعمى أو الجنون!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حبل السُره

توفي قبل يومين صديق لي معه ذكريات طيبة لكنها حزينة. كان قد مات غرقا في النهر، بينما أهله كما يعرف كثيرون في بلدتنا الصغيرة "أيس" كانوا قد ألقوا حبل سُرته في أعالي الفرات أيام كان هادرا طافحا، عله يصير ملاح سفن تجارية، أو سباحا ماهرا! وقد أثار شجوني وذكرياتي وشغلني عن طقوس المأتم ومجلس العزاء لقائي بصديق وجار قديم كان بمثل حال المتوفى من خيبة مع حبل السُرة! كنت في حينها قد عجبت مع كثيرين أن أهله كانوا قد ألقوا حبل سرته على سياج مدرسة عله يغدو معلما أو طبيبا أو مهندساً لكنه لم يستطع أن يكمل الابتدائية؛ صار فراشا في المدرسة ذاتها وكنا نشاهده يدور طوال الوقت حول سياج المدرسة كأنه يبحث عن حبل سُرته جاهلا أن القطط الجائعة دوما في بلدتنا الفقيرة قد التهمته لحظة سقوطه.على كل حال كان مصيره أفضل من مصيري فأنا ما أن خرجت إلى الدنيا حتى سارعوا والقوا حبل سُرتي على سطح المسجد المجاور لبيتنا الصغير المتداعي والآيل للسقوط. كانوا يأملون أن أصير رجلا متدينا لا تحيد قدماي عن المساجد، أو ربما إماما يتبعني المصلون والمؤمنون، وحتى الضالون لأهديهم سواء السبيل! كبرت بمشيئة الله طبعا وصرت إماما، ولكن في حانة؛ أأم السكارى؛ ولا أخرج من حانة إلا إلى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أخرى! ولا أعطي نصيحة أو مشورة لأحد إلا ويراها كثيرون كفرا وزندقة وفجوراً وتجديفاً، ودوماً يلاحقني صوت أمي حتى بعد موتها "لو ندري الدنيا معكوسة، وبالمقلوب هكذا كنا القينا صرتك في "خمارة" أو "ملهى"! ولم يكن كلامها على عواهنه، أو من فراغ كما يقال؛ فكثيرون منا يعرفون جارا لنا كان يعشق الحانات ولياليها وقد حمل معه حبل سُرة ابنه البكر ودسها في شق جدار بزاوية إحدى الحانات؛كان يريد لأفراح فردوس الكأس المشعشع أن يتواصل في قلوب أحفاده وأحفادهم؛ لكن النتيجة كانت مخيبة له حيث صار أبنه إمام مسجد! مات الأب الخائب أو المحظوظ ولم يشهد ابنه الآن زعيما سياسيا فاحش الثراء له صولات وجولات بين المساجد وبيوتات أعضاء مجلس البلدية، وله كلمة هامة في مصير بلدتنا المعزولة عن العالم، وتجري خلفه أربع زوجات وعدة محظيات، ورتل من الأطفال الشرعيين، وآخرين كثر يدعون أبوته، وهو يدعي أنهم ليسوا من صلبه، وكنت أقول لأمي: "هذه ليست آخر المعجزات، المعجزة الكبرى لم تأت بعد؛ فلا زال حبل السَّرة أو السَّري يا أمي على هواه يلدنا مرة أخرى، أو يشدنا هنا أو هناك، لهذه الصخرة أو تلك! " ولكنني في أعماقي كنت أتعذب متفكراً هل نحن الذين خيبنا آمال أهلينا وجرحنا قلوبهم؟ أم هي الأقدار أو الأهواء الغامضة سمها ما شئت، وقد أمسكت بخطانا كما تمسك الضواري بالغزلان الشاردة في البراري؟ أم ثمة شيء آخر لا أفهمه ولا أريد الغوص في تلافيفه؟ ولكي نخرج من جو جلستنا الكئيبة في المأتم تبادلت حديثا أقرب للهمس مع صديقي الفراش. اخبرني أنه ينتظر حفيده الأول من ابنه الوحيد. ربما بتأثير الكحول القوي الذي احتسيت منه كأسين قبل مجيئي لمجلس الفاتحة هذا، ارتسم ماضينا التليد المعكوس أو المقلوب دائماً أمامي بكل تفاصيله ومآسيه؛ سألته:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ وأين ستلقون حبل السُرة بإذن الله؟

هز رأسه؛ كأنه فوجئ بشيء قديم يعتقده اندثر وانتهى ويود لو ينساه رغم أنه اختلط بمصيره ومصائرنا حد اللعنة والفجيعة! والتزم الصمت، تراءت لي مقرات الأحزاب الدينية والديمقراطية والثورية ونصف أو ربع الثورية وقد احتلت أماكن أراجيح الأعياد، وأماكن مرحنا ولهونا القديمة في مدينتنا؛ بل صارت تزاحم المساجد ودكاكين القصابين والبقالين وباعة الخردة في أعدادها وبضاعتها، وصارت دعاياتها وبريقها وحلالها وحرامها يقتحم البيوت من الأبواب والنوافذ، خيل إلي أنهم سيلقونه على مقر أحدها عل وليدهم يصير وقبل بلوغه سن الثلاثين قائدا ملهما، يخلد شجرة العائلة ويجعلها تحمل ذهبا ولؤلؤا ومجوهرات، وأوسمة، بدلا من ثمارها الفاسدة أو التالفة عادة، قلت له:

ـ نعم حسنا تفعلون إذا ألقيتموه على مقر احد الأحزاب؛ فوليدكم حسب دنيانا المعكوسة والسائرة بالمقلوب سيصير رجلا بسيطا نظيفا مسالما لا شأن له بالسياسة والسياسيين الذين ما انتهوا من مصيبة إلا زجونا معهم بأخرى!

راح ينظر بوجهي لا ادري مستنكرا أو مستفهما، لا يعرف بماذا أفكر أو أتحدث أو أهلوس وربما كان مُتَبالها مثلي، وبدلا من أن يجيبني؛ سألني:

ـ متى تكف عن شرب الخمر؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الزهرة السوداء

جمعتني صداقة طيبة بباحث نشيط منتج رغم بلوغه الثمانين، لكن حظه كان قليلا في الشهرة والنشر. وكنت أشفق عليه إذ ورط نفسه في بحث لا أرى له نهاية؛ عنوانه "تأريخ الثورات والجنون:العراق نموذجا". أحيانا انتزعه من بين أكوام كتبه وأوراقه ومحابره التي تفوح برائحة تشبه رائحة الفورمالين في قاعات حفظ أو تشريح الجثث، لنتمشى بمحاذاة النهر، أو نجلس في بار عتيق مغمور في الصالحية؛ نحتسي العرق بهدوء وحذر خشية السكر ونحن في عمر لا يسمح لنا بالترنح، أو السقوط أمام الناس أو تكسر العظام! نجلس إلى مائدة صغيرة في حديقة البار الصغيرة الكائنة خلفه أمام الشجرة الوحيدة: عريشة عنب متسلقة جدارا يطل على خرائب أخذت تتسع في تلك المنطقة! أحيانا ترف علينا وريقاتها الخضراء الداكنة كأنها تربت على أكتافنا المتهدلة بثقل الزمن!أجبرنا أحد السكارى على سماع مقام بغدادي على طريقته وكان جميلا رغم ما جاء فيه من أخطاء في قصيده أو أدائه لكنه أثار مواجع صديقي فقال:

ـ كثيرون لا زالوا متعلقين بماض عفا وانقضى، والمصيبة أنهم يحبون قاتليهم ومُتلفي حياتهم!

تجرع نصف كأس العرق تقريبا، مسح فمه ليقول:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ بلادنا خرجت من تحت أربعة قرون عثمانية مظلمة نتنة حطمت ال رأس والقلب والأطراف كانت أحوج ما تكون لغذاء حضاري طويل لتستعيد إنسانيتها المفقودة، لا لقفز عال في ساحات الثورات والانقلابات والصراع على الزعامات والمناصب!

سألته لماذا غفل الملك وخاله الذي ظل وصيا عليه رغم انتهاء وصايته، ورئيس الوزراء المعروف بدهائه وحنكته عن المتآمرين الذين أطاحوا بحكمهم وقتلوهم وسحلوا بعضهم في الشوارع!

تحدث صديقي طويلاً وهو ينفث بين الفينة والأخرى دخان سيجارته من منخريه عن كل واحد منهم كثيرا، لكن استوقفني ما تحدث به عن الوصي:

ـ الوصي أيضاً كان يعلم جيداً بما يجري، عشرات الإخباريات جاءته حتى من ضباط عملوا بوجهين مع الانقلابيين ومع السلطة، تحذيرات كثيرة من رؤساء الدوائر الأمنية والاستخبارية وصلت مكتبه فكان يسفهها أو يتجاهلها، وأحياناً يوبخ المحذرين والناصحين!

ـ لماذا؟

ـ كانت كآبته سوداء قاتلة، كان يعرف أن الإنجليز يعلمون بالانقلاب ويريدون رحيلهم، والأمريكان يعلمون ويريدون رحيلهم، والإسرائيليون يعلمون ويريدون رحيلهم، والسوفييت يعلمون ويريدون رحيلهم، حتى الصينيون وأهل الإسكيمو يريدون رحيلهم، هذا إذا لم يكونوا كلهم أو بعضهم ضالعين في مسعى إزاحتهم ووضع البلاد في مهب رياحهم!وهذا كان يفاقم كآبته ويجعله عن وعي ودون وعي ينشد الموت والخلاص!

ـ لماذا لم ينتحر هو، ولا يجر الملك، والبلاد كلها لتنتحر معه!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ في دراستي الطويلة اكتشفت أن الزعيم أو الرئيس أو الملك في هذه المنطقة إذ أحس أنه سيموت أو يقتل لا محالة يريد أن يموت أو يقتل معه أكبر عدد من حاشيته وشعبه، ربما يريدهم أن يواصلوا خدمته أو عبادته ويبددوا وحشته في العالم الآخر، تعال ونقب في المدافن السومرية لترى العجب!

طبعاً أضحكني تفسيره، وزاد من لهفتي لكي أعرف أكثر عن هذا الحدث الذي حلمت به طويلاً وهللت لوقوعه، وكان نصيبي منه مع الكثيرين السجون والحروب والصراعات والمنافي والشقاء. قبل شهرين من موته بالسكتة الدماغية ودون أن يكمل بحثه الطويل أو اللانهائي كما توقعت استدرجته إلى بارنا القديم المفضل، وقد ظل السؤال يشغلني ولا أرى إجابته السابقة شافية، وأكرره مع نفسي لمرات كل حين: لماذا منع الوصي الملك أن يأمر جيش القصر لمواجهة الانقلابيين وكان قادراً على دحرهم!

فطرحته على صديقي العجوز، ثانية، وكأنه بحكم العمر أو المزاج تحدث بطريقة أخرى:

ـ كان الوصي في تلك السنوات مشغولاً باستنبات الزهرة السوداء، كان يؤرقه أن الزهور موجودة بكل الألوان إلا اللون الأسود، الزهرة الزرقاء مهما كانت غامقة ليست زهرة سوداء فأراد أن يصل إلى السوداء ويحقق سبقاً ملكياً عالمياً! فأخذ يجري تجاربه في حديقة قصر الرحاب الأنيقة، استدعى خبراء في الزراعة؛ بستانيين، حدائقيين، فلاحين، رهبان أديرة عرفوا بخبراتهم الكبيرة بالزهور والأعشاب الطبية، وقيل أنه كان على وشك الوصول إليها، لكن الزهرة السوداء فاجأته لتطل عليه بوجهها المتجهم الغاضب من أبواب القصر ومن فوق الأسوار، ومن ثقوب الليل والنهار؛ زهرة كبيرة وحشية بدائية برائحة الدم والبارود ابتلعته مع الملك وحاشيته وضيوفهم وحكومته ونظامهم الذي لم يكن بالقبح الذي ص وره أعداؤه خاصة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأحزاب المتطرفة، التي رأينا فيما بعد ماذا فعلت في البلاد والعباد!

أطل الصباح والبلاد غابة تعج بالزهور السوداء الزاحفة التي لا ترتوي إلا بالدماء!

مضى زمن على رحيل صديقي الباحث، ولا زلت رغم هرمي وعلل جسدي أتردد على هذا البار أجلس وحدي عند أقدام شجرة الكرم القديمة، أحتسي كأسي متمهلا، أحاور صديقي في غيابه الأليم، وأسمع لغط وجدل رواده بالسياسة حيث تنتهي عادة بالعراك أو القيء ثم تبادل القبلات، بينما ينبعث من ركن آخر غناء سكارى ينعون حظوظهم ومصائرهم، ثم ينخرطون بالبكاء! وأسمع كلام صديقي عن ال وصي والبلاد وما آلت إليه مع الزهرة الوحشية السوداء، وأستعيد في ذهني ما قرأته في كتاب قديم عثرت عليه مصادفة في سوق السراي عنوانه "طرائف الزهور، وعجائب الدهور "مجهول المؤلف": من خصال الزهرة الوحشية السوداء أنها تنبت حين لا تريدها، ولا تنبت حين تريدها!، " ثم اكتشف فجأة أن البار الذي كأسه المثلم بيدي لم يعد موجوداً فقد هدمت هذه الأبنية العبقة برائحة الأقدمين، وقامت مكانها بناية اسمنتية رمادية كالحة شاهقة لوزارة العدل!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الجاحظ وكتبه!

بعد أن انتشر في المدينة خبر سقوط الكتب على الجاحظ وملازمته الفراش، قلقنا عليه كثيرا، وجدتني مع خمسة من النساخين والوراقين نزوره عصرا، في بيته البسيط المبني من الطين والحجر في ضاحية من البصرة، قريباً من شط العرب. كان من حسن حظي إنني استطعت أن اجلس بجانبه في بيته البسيط الذي ليس فيه من أثاث سوى فرش بسيطة رثة ممدودة على الأرض، ومنضدة خشبية حائلة اللون عليها إبريق ماء، وكؤوس صغيرة من الفخار! كان بثياب بيض فضفاضة، وعمامة بيضاء مذهبة نظيفة وقد بانت من تحتها شعيرات شائبة، أنارت وجهه الداكن الأقرب للسواد، كان قد قارب المائة عام، استهلك خلالها اثني عشر خليفة عباسيا، كلهم ماتوا ونسوا، إلا هو، بقي الكاتب المعلى، كل من معي كان يقول:

ـ حمداً لله على سلامتك.

أحدهم قال:

ـ هذه الكتب الجاحدة؛ سقطت عليك وأنت صانعها!

ابتسم الجاحظ قائلا:

ـ لا، هذه الكتب الورقية لم تسقط علي، ولم تؤذني، ما سقط علي وآذني كتب أخرى!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وسط دهشتنا جميعاً قلت:

ـ كيف؟ لم افهم يا سيدي!

ـ الكتب التي في داخلي هي التي سقطت فوق رأسي!

دهشت، أكثر، بقيت أتطلع إلى وجهه الذي يقولون إنه دميم؛ بينما أنا أراه من أكثر وجوه الناس لطفاً وبشاشة؛ أريد منه أن يقول المزيد، فحديثه متعة للقلب حتى لو كان حزينا! رفع صوته ليسمع الآخرين معي:

ـ الكتب خارجنا لا تقتلنا إذا سقطت علينا مهما كانت ثقيلة، الكتب التي تقتل هي التي في داخلنا، لقد التهمت الكثير من الكتب، كنت أبيع السمك والفحم وحشيش الأغنام، وأحرم نفسي من الطعام والكساء، لأستأجر دكاكين الوراقين أقضي الليل فيها اقرأ على شمعة، انتقلت الكتب من الرفوف العطنة إلى داخلي، وغسلتها بدمي، صارت في أعماقي مكتبة هائلة لا يراها أحد حتى أنا! فجأة في ليلة شتاء باردة عاصفة منحوسة، وعندما شاب رأسي، انهارت كلها في أعماقي، وقتلتني!

صمت فجأة، قلت وأنا الكاتب المبتدئ:

ـ وهل يمكن للكتب أن تسقط أو تنهار في أعماقنا؟ قال بلهجة صارمة حازمة:

ـ نعم، كلنا تسقط علينا الكتب في أعماقنا، منا من يموت تحت وطئتها الثقيلة، ومنا من تترك في روحه وقلبه جروحاً وندوباً فيتوقف متلمساً قلبه وطريقه! ومنا من هو كحمار السوق، لا يشعر بها، فيظل سادراً يقتل الناس بما يتقيأ من كلمات!

بقينا صامتين ذاهلين قال أحد النسّاخين:

ـ ولكن كتب الوراقين جعلتك تنتج كتبك التي لا زالت تنير طريقنا وتمنحنا البهجة والفائدة!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ندت عنه ضحكة حزينة قصيرة:

ـ ألا ترى شقاء البشر؟ ألا ترى الخسة والنذالة والكذب والظلم والعهر والقسوة؟ ألا ترى الضلال والتيه والغباء؟ بماذا أفادت فيهم كتبي ورسائلي، "الحيوان" والبخلاء والبيان والتبيين، والبرصان والعرجان، وخلق القرآن، وفضل السودان على البيضان، وما لف لفهم؟ كتبي ورسائلي لماذا لم تغيرهم، لا بد إنني قصرت في شيء، ربما كنت ضالاً أيضاً! ذلك ما جعلني انهار ساقطاً على الأرض!

ـ لا، أبدا، ما كان لك أن تحس هكذا، أنت أنرت الطريق وهناك من يصر على العمى!

قال بصوت كأنه يأتي من أعماق الزمن الطويل كله:

ـ لا تتعب نفسك يا ولدي! كل من ابتلي بالكتب يأتي يوم تنهار فيه الكتب بأعماقه فمنهم من يهتدي، ويعترف، ويهدي الناس معه، ومنهم من يظل طريقه، ويضلل الناس معه، أما أنا فقد اكتفيت بالموت، هل الموت يكفي؟ قال أحدنا:

ـ أنت لم تمت! لا زال وجهك طلقاً باسماً!

ـ أنت تجاملني يا ولدي، والموتى لا تنفع معهم المجاملات!

خرجت من مجلسه، وأنا أتحسس قلبي وما تدافع فيه من كتب وأوراق، وأقلام ومحابر، ودموع!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الجاحظ والنساء!

التقيت الجاحظ عند ضفة شط العرب، كان حزيناً منكفئاً يلوذ بفيء النخيل من هجير القيظ، ورطوبته اللزجة، ثمة نسمات تهب كأنها يد حانية عليه في شيخوخته، ومع ذلك لا تخاله قد خرج من القبر لتوه، حتى إنني، سألته عن الحال كما في أيامه الخوالي:

ـ وكيف يكون الحال وزوجتي المناكدة قد تصابت أرذل العمر، فركبتها الغيرة وطردتني من البيت، وحرمتني من كتبي وقرطاسي!

وجدني مبهوتاً؛ فطفق يحدثني:

ـ كنت عصر أمس في السوق أريد شراء خرقة أرتق بها ثقباً في ثوبي حين اقتربت مني امرأة منقبة، وسألتني:

ـ ألا ترافقني لحاجة بسيطة؟

وأنا كما تعرف لا ضعيفاً أمام النساء إنما رؤوفاً بهن؛ فرافقتها، حتى أوصلتني إلى دكان صائغ علق حوله على الجدار حليا كثيرة من الذهب والفضة والزمرد. قالت له:

ـ كوجه هذا!

تطلع الصائغ في وجهي مليا ثم قال:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ صار معلوما!

وانصرفت المرأة حتى دون أن تشكرني! سألت الصائغ:

ـ ماذا أرادت المرأة من هذا؟

أراد أن يتهرب من إيضاح الأمر، لكنني ألححت عليه، فقال:

ـ لقد طلبت مني أن أصيغ لها محبساً عليه وجه الشيطان، قلت لها لم يسبق لي أن تشرفت بمعرفة شيطان، أو حتى لمحت وجهه ولو من بعيد، قالت انتظرني!

وذهبت وأتت بك.

ـ وهل ترى أن وجهي وجه شيطان؟ ـ معاذ الله، إنه وجه ملاك طيب رحيم!

سرت في الطريق متفكرا، لماذا رأت هذه المرأة في وجهي وجه شيطان؟ هل لأن الشيطان في نفسي؟ أم لأن الشيطان في نفسها هي؟ هل سواد الوجه ودمامته ملامح شيطان، أم ملامح ملاك لوحته صروف الألم، والعمل والقول الجميل والحنو على الآخرين؟ وكم شيطاناً تخفى وراء وجه جميل؟ وكم ملاكاً ضاع تحت ثقل وجه قبيح؟ وبينما أنا في منعطف الطريق بزغ لي شبح قائلا:

ـ أنا الشيطان جئت أحاسبك! بأي حق تنتحل شخصيتي، وتعطيه للصاغة يرسمونه على محابس النساء؟

ـ حدث هذا رغماً عني، بالأحرى بفعل امرأة خبيثة!

ـ على كل حال أحذر! اذهب واسحب صورة وجهي من ذلك الصائغ!

أدركت أن الشياطين لا يريدون أن يكشفوا عن ملامحهم، وصورهم لأحد.كيف يعملون ويكسبون، يسرقون وينهبون، يغوون الناس ويقودونهم إلى المهالك إذا كان الناس تعرف

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجوههم؟ الشيطان محق ولا ينبغي لي أن أضع صورة وجهي أو وجهه، كما قال، على ذلك الخاتم الغريب المشئوم، قلت: ـ أعذرني أنا لا أقوى على صاغة الذهب والفضة، لم لا تذهب إلى الصائغ وتغويه وتسحب صورة وجهك منه!

ـ لا! عليك أنت أن تصلح ما فعلت، هذا إنذار لك، وإلا خطفنك إلى أرض الجن، فيقرمطون عظامك قبل لحمك!

وتوقف لحظة متطلعاً إلى وجهي، خفق قلبي بقوة خشيت أن يسلخ وجهي، ما دام صار وجهه، أدرك ما دار في خلدي:

ـ رغم أنك تشبهني كثيرا، لكنك لا تجيد لعبتنا، ولا نخشى منك!

لم أفهم من كلامه شيئاً سوى أن الشياطين يختبئون وراء وجوه البشر أحيانا!

عدت إلى بيتي ووجدت زوجتي قلبت خلقتها علي، فرغم أنها صارت عجوزاً ولكنها ما تزال تدعي محبتي وتريدني لها فقط، مع أنها حين تنام بجانبي لا أجد فرقاً بينها ولوح من خشب، لا أدري من جاء يخبرها بما حدث لي مع المرأة، ربما هو الشيطان نفسه، فراحت تزعق بوجهي:

ـ من هي تلك المرأة التي رافقتها إلى دكان الصائغ تريد أن تصنع لها حلية؟ بأي عمر أنت لتغوي النساء؟ وطردتني من البيت!

وها أنا هنا لا أجد لي ملاذاً غير ظل النخيل!

كان وجه الجاحظ داكن السمار غليظ الملامح، لكنه لا يمكن أن يكون وجه شيطان، بل أنا كما أسلفت أراه لطيفاً محبباً، جلست بجانبه وكانت أنفاسه تتسارع حتى إنني خفت عليه أن تكون هذه هي أنفاسه الأخيرة التي ستعود به إلى القبر، ولعنت جور الزمان كيف يقسو على كاتب حكيم عظيم مثله في أخريات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أيامه! قلت:

ـ هيا معي إلى الصائغ أولا!

وجدنا الصائغ طيباً ولطيفاً، ومستاء مما حدث، قال:

ـ أنا لم أر في وجه صاحبك وجه الشيطان، على العكس رأيت فيه وجه ملاك طيب فمن ينقاد لامرأة في حاجتها لا يمكن أن يكون إلا ملاكاً!

نهض ليريني محبساً قائلاً:

ـ لقد جاءتني امرأة؛ بعد امرأة الشيطان؛ أرادت أن ارسم لها وجه ملاك على محبسها. فرسمت وجه صاحبك عليه!

وأراني المحبس، كان وجه الجاحظ يطل منه؛ تحيطه هالة نورانية، ثم نهض الصائغ وقبل رأس الجاحظ معتذراً فشكرناه وغادرناه راضيين. في طريقنا لاح لنا شبح الشيطان عند المنعطف، قال الجاحظ:

ـ قف هنا وسأذهب أنا إليه فإذا رآك فقد يختفي!

ووقفت أرقبه، رأيت الشطان حقاً وبأم عيني، لم أسمع ما دار بينهما من كلام لكنني رأيته ينحني على رأس الجاحظ يقبله، ويمضي!

جاءني الجاحظ مستبشرا، قال لي لقد اقتنع بما حدثته عما جرى لنا مع الصائغ، وقال ضاحكا:

ـ إذا كان وجهك وجه ملاك، فعلينا أن لا نخاف من الملائكة!

قلت:

ـ بقيت، زوجتك كيف نقنعها ونرضيها؟

ـ حقاً الشيطان والصائغ في كفة، وهي وحدها في كفة!

ـ دعني اذهب معك إليها!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ لا، لا يفيد! رأسها صخرة قدت من جبل! أمري لله!

قلت ضاحكاً مشجعاً:

ـ لا خوف عليك معها، ألست من ألف رسالة في العشاق والنساء؟ قال وهو يودعني:

ـ ما جاء فيها يصلح لكل نساء الأرض، إلا زوجتي!

ومضى يجر خطى كسيرة حزينة!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بلبل الإذاعة في شدوه الأخير

في ليلة 14 تموز، من كل عام ولسنوات كثيرة مضت يخرج العجوز أمين البكري ذلك الشريط الذي حمله معه من بغداد إلى منفاه في مدينة أوبسالا في السويد، يستمع إليه، يشرب عدة كؤوس من النبيذ ويدخن سجائر قليلة، ويستعيده مرات ومرات كما الطفل مع أغنيته المفضلة. ليس في الشريط سوى تغريدة بلبل جميلة جدا يستمع إليها ويحفظها فهو يعدها تغريدة روحه ولحنها العميق، وكلما استمع إليها واستثارت شجونه يضحك ويبكى، يهمهم ويتحدث مع نفسه ومع أصدقائه الذين غابوا وبقي هو شيخا مسنا وحيدا، في هذه الشقة الصغيرة في أقصى الدنيا ويردد عبارته المعتادة (لو أن هذا البلبل لم يزحه ذلك الصوت الهادر الوحشي، لبقينا في وطننا نسمع شدوه كل صباح وما تبعثرنا في المنافي)!، كان كأنه يتعبد داخل صوت هذا البلبل وطالما اغتنم ابسط فرصة أو مناسبة ليحدث أصدقاءه وم عارفه عنه، مرددا في النهاية عبارة اشتهرت بينهم: "مهما تعددنا أدياناً ومذاهباً ولغات كان يمكن لصوت هذا البلبل أن يكون صوتنا جميعا" وكم ضحك أصدقاؤه منه ومازحوه: "لم لا تؤسس له حزبا بين أحزاب العراقيين التي تكاثرت في العراق كالفطر السام في غابات السويد؟." حين يحس إنه فرغ من دموعه وقهقهاته وأحاديثه مع الغائبين والراحلين والباقين يتحامل على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نفسه وينهض تاركا مائدته الصغيرة وما عليها من بقايا، متجها إلى سريره بخطى متمايلة!

لزمن طويل مضى كان كثير من العراقيين يستيقظون صباحاً على صوت بلبل يغرد من راديوات البيوت والمقاهي بصوت ساحر غريب، يتلوه صوت أنيق لمذيع يقول (خير ما نفتتح به برامجنا آيات من الذكر الحكيم) لينساب صوت مقرئ عراقي أو مصري رخيم بمزيج من شجن أخروي ودنيوي!

بعضهم لشدة حبهم لهذا البلبل وإيمانهم بمغزاه يدعي أنه لمس بأم عينيه وقلبه أن صوته يجعل البلابل المتراقصة بين النخيل والتين والأعناب، في حدائق البيوت وعلى أشجار الطرقات والساحات توقف مرحها وشدوها وعناقاتها العاطفية محاولة التعرف على من جاء ينافسها بهذا الصوت العذب الصافي الجريء، وكيف صار يحتل أسماع العراقيين بعد أن كانت هي قد احتكرته بأنغامها وشدوها مذ وجدوا على هذه الأرض، وإن البلابل صارت قلقة معذبة وهي ترى العصافير والغربان متشفية بها فأخذت تغادر أعشاشها مبكرة لتقرأ تحية الصباح على العراقيين، قبل بلبل الإذاعة، فغرق الناس بأصوات البلابل، والعصافير ونسوا الغربان والنسور، حتى انقضت عليهم ذات يوم ساخن عصيب!

ولكن ثمة حقا من كان يسمع هذا البلبل يعتقد إنه بلبل جاء من أساطير بغداد القديمة، حيث الديكة تنشد شعرا، والطواويس تصدر الأوامر والنواهي، والقيان والجواري يغنين فتنتشي حجارة الجدران وما عليها من طيور وقطط وكلاب! بل هم يدعون أن هذا البلبل ذكي أيضا، عاطفي، متفائل، معمر لا يمرض، وربما لا يموت، يأتي من البساتين والضفاف ويدخل الإذاعة كل صباح لا يخلف موعده لينقر الميكرفون ويؤدي أغنياته الفرحة للعراقيين، ويمضي! وسواء صدقنا هذه الأقاويل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المسرفة في عاطفتها وسذاجتها أو ضحكنا منها فإن كثيرا من الحكايات والتعليقات شاعت وانتشرت حوله، قالوا إنه بلبل عراقي أصيل نادر من بساتين بعقوبة، وآخر قال: بل هو من وادي الموصل، وآخر قال هو من دروب وقصور البصرة والناصرية الضاجتين

بالموسيقيين والمغنين! وكل راح ينسبه إلى منطقته في العراق، بينما قال آخرون إنه بلبل انجليزي، أو أمريكي، وإنه يقيم في بيت الملك ويطعمه على مائدته، وإن الوصي ورئيس الوزراء نوري السعيد يسقيانه الخمرة معهما في الليل ليسكر العراقيين بصوته في النهار، بل ادعى بعضهم أن هذا البلبل جاء هدية من هتلر إلى الملك غازي في محاولة لضمه إلى إمبراطوريته الحربية بعد إن اكتشف مي وله للنازية نكاية بالإنجليز! وجاء الرد على هذه الحكاية المتهافتة من بعض عتاة الشيوعيين: " بل هو جاء هدية من ستالين لحكومة العراق بعدما تحالف البريطانيون والعراقيون معه ضد هتلر إبان الحرب العالمية الثانية! تكاثرت الحكايات الطريفة أو السخيفة حول هذا البلبل الأسطوري والتي يجب، على أي حال، أن يمازجها العراقيون كعادتهم بالسياسة! قلة فقط من موظفي الإذاعة تعرف أن هذا البلبل هو مجرد شريط تسجيل أو آلة معدنية متطورة نسبيا أهدتها إحدى الشركات اليابانية للإذاعة العراقية بعد أن اشترت منها أوائل الخمسينيات مجموعة من الأجهزة الإذاعية!

ثمة من يقول أن بغداد كانت آنذاك تعيش زمنا حالماً فيه الكثير من الدعة والمحبة والبساطة والرضا! غافلة عما تخبئه لها الأيام، والبلبل المعدني يزيد الأشياء غفلة حوله! وثمة من يقول كانت البلاد تعيش آنذاك عهد ظلم وقسوة وتخلف وعمالة للانجليز ولا بد من سقوطه أو تغييره بثورة جارفة!

ومهما يكن الحال ثمة ثلاثة من موظفي الإذاعة يعملون في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قسم البرامج الموسيقية أوهموا محاسب الإذاعة أن البلبل حقيقي، وصاروا يقدمون له كل شهر قائمة بمصاريف طعامه وشرابه وعلاجه! وهل يستطيع المحاسب أن يشك في كون البلبل حقيقياً وحياً نشيطاً، وهو له كل هذه الشهرة والسمعة الطيبة بين الناس ودوائر الحكومة أيضا؟ لم تكن قائمتهم الفاسدة بمبلغ كبير، كانت فقط بما يكفي لجلسة شراب في بار ليالي الأنس على شارع أبي نؤاس، وعشاء مسكوف على شاطئ دجلة، ولمرة واحدة في الشهر، فقط لا غير، ينهونها عادة بالدعاء لله أن يحفظ البلبل ومحاسب الإذاعة غير المدقق، أو الشكاك بزملائه ويقيهما من كل سوء!

دهشوا للسرعة التي عبرت فيها قائمة المصاريف لأول مرة على المحاسب، الرجل المتوسط العمر الأشيب الشعر، قال لهم: (عاشت ايديكم! شلون ربيتوا هالبلبل الطيب، الله يحفظكم ويحفظه مونس العراقيين، ومحلي صباحهم).

ويرد عليه الموظف المدبر للعبة كلها (ويحفظك مولانا، ويحفظ الإذاعة، ومليكنا المفدى).

صاروا إذا ارتفعت تكاليف مشروباتهم يرفعون رقم قائمتهم الصغيرة أيضا، فإذا قال المحاسب أن مصاريف البلبل كثيرة يكون الجواب جاهزاً " إنه بلبل قادم من اليابان، طعامه خاص، وشرابه خاص، وطبيبه خاص، تربى وتدرب في اليابان وأدويته باهظة الثمن! أتدري انه لا يغني ويطربنا إلا إذا شرب خمرة خاصة من اسكتلندة؟! وقد تهيأوا للطوارئ الخطيرة فجلبوا قفصاً من جريد النخيل وضعوه في زاوية من حجرة إدارة الأشرطة حتى لو دخل المحاسب، أو مدير الإذاعة إذا ما دفعهم حب الاستطلاع أو وشاية ما مستفسرين عن البلبل سيقولون على الفور وبصوت واحد(لقد طار البلبل، نسينا باب القفص مفتوحا، واللعنة على حر بغداد، لم يجعلنا نستطيع

منشورات «الف باء AlfYaa»

إغلاق النوافذ) ويشرعون جميعهم وبصوت واحد ودموع واحدة بالبكاء!

لعبة محكمة، وما ألذ العرق الزحلاوي والمستكي في الليل ممزوجاً بتغريد البلبل الصباحي!

لسنوات كان هؤلاء المختلسون الظرفاء يرقصون داخل حلم مرح يشربون العرق ويأكلون المسكوف مرة في الشهر على حساب بلبل الإذاعة، الذي ظل دؤوبا على الاستيقاظ فجرا، ليطعمهم ويشربهم ويحيي أهل العراق كلهم بصوته المنغم السماوي فيشمون فيه رائحة ورد الجوري والقداح ودجلة والفرات معا، كان هؤلاء الموظفون يبررون فعلتهم ويستمرئون طعامهم وشرابهم أنهم هم من طلب هذا البلبل من الشركة اليابانية فمنحته لهم بكرم ياباني لم يكونوا يتوقعونه، وإنهم لو سألوا أي عراقي آنذاك كم يساوي هذا البلبل عندك؟لقال على الفور وزنه مع قفصه ذهبا، وحتى اليوم هم لم يستهلكوا وزن ريشة منه ذهبا!

قال أحدهم في نوبة تبكيت ضمير:

ـ لكننا نسرق!

رد الاثنان بصوت واحد:

ـ ادع لربك أن يبقى السرقة والفساد بحدود مصاريف بلبل الإذاعة!

كان ذلك ليلة يوم الأحد، 13 تموز 1958، لم يعلموا أن البلبل صباح ذلك اليوم كان قد أدى شدوه الأخير، وجلسة طعامهم وشرابهم على حساب هذا البلبل المسكين هي العشاء الأخير، في صباح اليوم التالي لم يسمع الناس صوت بلبلهم، سمعوا قعقعة هائجة في الراديو ثم وشوشة وطرقات حادة، وجاء الصوت هادرا، من رجل صارخ كأن عقربا لسع دبره

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتلو بيانا فيه وعيد ووعود، يتلوه نشيد حماسي، يعيدونه مرات ومرات:

(الله أكبر فوق رأس المعتدي، الله....الله أكبر)

نشيد رصاصي صاخب انحدر فوق رؤوس العراقيين، كان بعضهم يسمعه منذرا متوعدا من إذاعة صوت العرب في القاهرة، وها هو اليوم يأتي من بغداد كسيل يجرف معه كل ما يصادفه في طريقه، يتبعه صوت غليظ يطالب الجماهير بإلقاء القبض على الحاكمين السابقين الهاربين! امتلأت شوارع بغداد بجموع من البشر، تهتف وتصرخ، قتل الملك وعائلته وجماهير هائجة تسحل جثث الوصي ورئيس الوزراء الأعلى للاتحاد الهاشمي وابنه! ثم بعد ساعات امتلأ الجو برائحة الجثث المسحولة في الشوارع مقطعة ومحروقة!

نسى الناس بلبلهم الصباحي، ثمة من قال "لقد امتلأت الإذاعة بلابل أخرى ترتدي البزات العسكرية " لم يعد الناس يذكرون ذلك البلبل لا في البيوت ولا في المقاهي، صار كثيرون يتحاشون الحديث عنه كأن الحديث عنه خيانة للوطن والعهد الجديد. بل قيل حتى بلابل النخيل والتوت والعنب توارت منسحبة إلى أعماق البساتين والحقول أيضا، صارت في بيوت الناس أسلحة كثيرة، وكل يوم يسمع دوي رصاص وقنابل، وحتى البلابل والطيور الأخرى لم تعد ترتاد حدائقهم!

شغل الناس بالجدل والصخب السياسي، بعد أربع سنوات تقريبا، وصلت إلى الإذاعة رسالة قصيرة من رجل كهل، تسلمها أمين البكري يقول مرسلها(تلج في قلبي هذه الأيام أحزان كثيرة، لكنني أردت أن أسأل فقط عن أحد هذه الأحزان: بلبل الإذاعة، أين هو؟ لم لا تعيدونه؟ لماذا طويتموه، بالله عليكم أعيدوه، عله يمنحنا لحظة أمل، أو حتى نفحة واحدة من رائحة البساتين، فقد عجت شوارعنا برائحة النفايات) هزت الرسالة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أمين البكري المسئول عن تنظيم البرامج لم يكن احد المختلسين الثلاثة القدامى، لكنه كان يعلم بلعبتهم وكان أحد الساكتين عليها، لا لأنها تمده بالضحك فقط، بل لأنه أيضاً من المقتنعين بفكرة غريبة محيرة: "أن التغاضي عن الفساد الطريف؛ درء لفساد شرير كبير عنيف"، قرر أن يحاول أعادة البلبل للتغريد ليرضي هؤلاء المساكين المصابين بمرض الحنين العضال القاتل! ورغم شكه بجدوى ذلك في هذه الأيام المخبولة، دخل بالرسالة على المدير العام للإذاعة والتلفزيون ليأخذ موافقته على إعادة البلبل للعمل بعد أن صار جزءا من العهد الماضي أو المُباد كما يقال، كان المدير ضابطاً كبيراً، استمع للبكري بضجر، وبصعوبة فهم مقصده، ومع ذلك سأله:

ـ عن أي بلبل سخيف تتحدث؟

أعاد البكري شرحه وتفصيلاته بارتباك وتلعثم مؤملاً أن البلبل سيتولى بفصاحته إيضاح كل شيء، تململ الضابط المدير ال عام مزمجرا:

ـ اسمع! لا تضيع وقتي، بهذه التفاهات: كل دقيقة، كل ثانية في الإذاعة يجب أن تكون لخطب الزعيم الأوحد، وللأغاني والأناشيد الثورية!

خرج البكري يجر خطاه، لتواجهه الدبابات والمصفحات المحيطة بالإذاعة، حقاً كيف يجد صوت البلبل حيزا له في الإذاعة وقد صارت خطبة واحدة للزعيم الأوحد تستغرق ست ساعات، تعاد مرات في اليوم؟ لكنه لم يشأ أن يبتلع إهانته وهوانه، قرر أن يكون ولو للحظة كأولئك المختلسين الظرفاء الذين تواروا، هرع إلى أجهزته، استنسخ شريطا خاصا بصوت البلبل، قرر أن يحتفظ به في بيته مردداً مع نفسه:

ـ مهما طال اختفاء البلابل فلا بد أن تعود، وتزهر لها الأشجار!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لكنه هذه الليلة وجد إنه قد اشتط في أحلامه كثيرا، فها قد مضى ما يق رب الخمسين عاما، وهو قد مضى به العمر وجاوز الثمانين! ولم يعد لا هو ولا ذلك البلبل. لا شيء هناك سوى صليل أسلحة وخطب، وأصوات انقلابات وحروب وغزوات وهو قد اعتصرته الغربة والشيخوخة في هذا المنفى البارد! صباحا وهو لا يزال متمددا في فراشه صار يسمع صوت البلبل، بلبله القديم الأثير نفسه، لم يمت! لا لأنه فولاذي؛ بل لأنه بنى عشه في قلبه، ومع ذلك راوده شك! جهاز التسجيل مقفل منذ نهض عنه منتصف ليلة أمس، إنه صوته تماما، حفظ كل نغماته ونبراته، تغريدة في الروح لا تنسى أبدا، سره كثيرا وجعل أوصاله تنتشي وتسترخي أنه صار بسمعها من راديو بيتهم القديم في بغداد وفي تلك الصباحات الضاجة دروبها بأصوات الباعة والمارة المرحين، وأحياناً مواء قطة على الجدار، ونباح كلب سائب! لكن ما أقلقه إنه صار يشم رائحة ورود حدائق بغداد ممزوجة برائحة مطهرات مستشفى أودفالا الذي خرج منه قبل أيام.

ظل أمين البكري راقدا جامدا في فراشه يسمع تغريدة بلبله بشجن عميق كما للمرة الأخيرة! برهة صمت، ثم انهالت عليه أصوات أصدقائه القدامى في الإذاعة يقرعون باب شقته في السويد: انهض يا أمين ألا زلت هنا؟ أنهض جئنا اليوم نأخذك معنا إلى السهرة في بار ليالي الأنس! ستشرب اليوم على حسابنا لا على حساب البلبل، فنحن نعرف أنك نزيه ولا تقبل فعلتنا الفاسدة المضحكة! حاول النهوض لكنه ظل مشدودا إلى سريره كما بحبال، وفي رقود بارد ثلجي، ما جعله يدرك أنه ليس في بغداد وتموزها الساخن، بل هو في مكان آخر؛ ليس السويد أيضا!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النسر في المطبخ

استيقظ صباحا متأخراً أكثر من ساعة عن وقته المعتاد، وجد أن الساعة المنبهة القديمة قد تعطلت. قال في نفسه هذا نذير شؤم. أحس بوحشة وحدته أليمة ممضة أكثر من ذي قبل. مع ذلك هرع ليعد شيئا يأكله قبل أن يتوجه إلى عمله في دائرة البريد. نظر من النافذة، كان فضاء بغداد متألقا بشمس ذهبية ونسيم فيه دفء، وعذوبة مبشرا بالربيع. لكنه أحس بأحشائه لسعة عقرب الساعة التي غدرت به، كيف سيتلقى نظرات مدير الدائرة الذي يتربص به محاولا التشكيك بقدراته والنيل منه؟ كان الزيت يغلي في المقلاة وهو يحاول فتح البيضة فوقه عندما انشقت لوحدها فجأة وبقوة، وخرج منها طائر دفع يديه وأسقط قشرة البيضة وسوائل دموية فوق الزيت فتناثر رذاذ ساخن منه على وجهه. بصعوبة فتح عينيه، دهش وجمد في مكانه وهو يرى الطائر يحوم فوقه! كان بحجم عصفور، يدور باحثا عن مكان يقف عليه.أخذه الخوف! ما هذا؟ أيمكن لبيضة الدجاجة أن تخرج طيرا، ويحلق على الفور؟ ولكن أهي بيضة دجاجة حقا؟ مساء أمس وعند عودته إلى البيت اشتراها من وكيل شركة الدواجن، ومحله كبير ومعروف في شارع رئيسي! فتح الثلاجة وأخرج طبقة البيض، كانت مغلفة بالسلوفين وعليها ختم حكومي رسمي؟ إنه بيض الحكومة، ولا غبار عليه. كيف خرج من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

البيضة هذا الطائر الغريب؟ ازداد توجسا وذعرا، ارتجفت أصابعه وتشنجت وأحس بجفاف مر في حلقه! وجد الطير يكبر، خلال دقائق صار بحجم غراب تقريبا، وبعينيه المدورتين كعيني بومة كان ينظر إليه وبنباهة وخبث، بحركة لاشعورية كسر جموده واتجه إلى شباك المطبخ وفتحه يدعوه للخروج. أراده أن يخرج ولا يعود فينساه كأي كابوس من هذه الكوابيس الكثيرة التي تداهمه هذه الأيام! لكن الطير ظل في مكانه يحدق به بنظرات لا تخلو من الحقد. وكان يكبر. فقرر أن يتجاهله، علّه ينساه! "عل أحدنا ينسى الآخر!" عبارة وحيدة قالها بصوت مسموع! تصاعد الدخان من المقلاة فأغلق الطباخ، وحين طالعته طبقة البيض من الثلاجة وقد نسي أن يسدها؛ أحس برجفة! أن يخرج طير كهذا من كل بيضة، ثلاثون طيرا شرسا؟ تلك كارثة ليس عليه وحسب بل على المدينة كلها فهذا الطير الذي فتح جناحيه أضحى بدقائق قليلة نسرا كبيرا.

تساءل في نفسه هل سيجرأ ويحدث وكيل الشركة الحكومية بما حدث؟ ماذا يعني ذلك لديهم؟ سخرية قد يطير رأسه ثمنا لها! قرر أن يصمت، فقط أن يخرج هذا الطير المرعب من بيته الصغير. كلما تشاغل عنه، وعاد ينظر إليه يجده يكبر! الآن صارت عيناه تحدقان به بنظرات زجاجية جامدة مفزعة! إنه نسر جبار مفترس كأنه جاء لتوه من كهوف جبل شاهق بعيد، وليس من بيضة دجاجة في مطبخه الصغير التعيس، تفاقم خوفه وحين مر بالمرآة المعلقة في الممر، لمح صفرة وجهه، أنها صفرة الموت نفسه. أتجه إلى الصالة الصغيرة وتهاوى على الأريكة ممسكا جبهته، تطلع إلى الجدار. وجد النسر قد تبعه، وانتصب أمامه واقفا على عمود ستارة النافذة الطويلة ينظر إليه، منقاره المعقوف يتحرك ويتلمظ بشهية، يريد افتراسه! فكر بمن يتصل ليساعده في محنته، من سيصدقه؟ استبعد على الفور

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فكرة الاتصال بالشرطة، بذلك سيصنع لنفسه قضية كبرى! حمل سماعة التلفون وطلب دائرته، رد الملاحظ ضجرا متأففا، أعلمه بصوت منكسر مرتعش أنه اليوم مريض جدا، ولديه حمى ورشح، ورغم إنه سمع منه كلاما جارحا، لكنه هم أن يقول له:

ــ في بيتي نسر متوحش مفترس، لو تساعدونني! لكن السماعة سقطت من يده وأغلق الخط. استحسن إنه لم يتحدث لهم بما يجري، فهم لن يكتفوا بجعله دليلا على قولهم أنه يعاني من خلل عقلي. بل سيعدونه تعريضا بالنسر شعارهم! وهذه عقوبتها رهيبة لا يريد تصورها، ولكن هذا النسر ما يزال يكبر، يسمن ويطول ريشه الباهت المبقع، وبثقله المتنامي يوشك أن يكسر جسر ستارة النافذة المضمومة، أفرد جناحية وحجب النور القادم من الخارج، أعتمت الصالة، أيمكن للنسر أن يخرج من بطن دجاجة؟ ثم يكون بهذه القوة والشراسة؟ نهض بوجل وحذر واتجه إلى حجرة النوم، ألقى نفسه على الفراش وسمع حفيف جناحي النسر مدويا يدخل وراءه ويقف على جسر النافذة أيضا، ويفرد جناحيه كأنه يوشك أن يطير ولكن نظرته المسلطة عليه ومنقاره الكبير المفتوح تشيران إلى أنه سينقض عليه! ماذا جنيت ليلاحقني هذا النسر؟ ماذا فعلت أكثر من أنني كسرت بيضة دجاجة لأقتات بها وأذهب إلى العمل؟ خطر له أن يغادر البيت! ويتركه للنسر. لكنه وجد أن ساقيه جامدتان متخشبتان لا تطاوعانه على النهوض! زعق النسر وهو يثب، راح الرجل يصرخ ويصرخ ويصرخ، وهيهات! لا أحد يسمعه، كان بيته في طرف المدينة وعلى مشارف الصحراء، والناس عادة صاروا في هذه الأيام يلوذون في بيوتهم تحاشيا لفظاظة الآخرين، ومفاجئات الأحداث!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قلم الشاعر

تحدث أمين متحف كفافي، الشاب اللطيف، بحماسة وفخر للرجل الزائر الذي بذل جهدا ليهتدي للمتحف القابع غير بعيد عن محطة القطار في الإسكندرية:

ـ كان كفافي يعيش وحيدا، يلتقي بأمه لفترات قصيرة متألما فرحا تائبا عن عقوقه وبعاده، تسكن معه في هذه العمارة فتيات حسناوات يعملن في الملاهي المجاورة، أو يمارسن الدعارة.

كان كفافي يتحسر انه لا يجد متعته معهن، كان يتوق لجنسه، يجد نفسه غارقا في لجته الحسية المخالفة أو المنحرفة؛ فيجد أن شهقة المتعة التي اعترته قد تحولت فجأة إلى طعنة عميقة في روحه. ويمضي يتطلع من نافذة شقته ينشد لجة البحر المختفي خلف العمارات الصاخبة ليغسل به دمه كله، تماما كما كانت بعض من فتيات الملاهي وبنات الليل يتطلعن إلى عينيه الحزينتين يتمنين لو يغتسلن بضوئهما ويعدن إلى براءتهن. كان يتوق لصفاء عميق لا يجده أبدا. قال أمين المتحف: بمثل هذه الأزمة الأليمة قال بيته الشعري الخالد" ما دامت حياتك قد خربت هنا، فستبقى خرابا حيثما حللت "وطاف به شارحا في حجرات المتحف الذي هو الشقة التي سكنها الشاعر اليوناني العظيم ردحا طويلا، ومات في المستشفى المجاور لها، من النوافذ يلوح شجر دائم الخضرة يعكف على الأرصفة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والجدران، مُتربا أو لامعا!

عندما كان الرجل ينزل الدرج فوجئ بكفافي يصعد الدرج، ربما كان قادما من شاطئ البحر وليس من المقبرة، وقد كللت رأسه قصيدته كتاج بلوري، سمع الرجل من خلفه كركرات فتيات وعطر قوي ربما محلي الصنع. تلفت؛ كانت الفتيات الجميلات بثياب قصيرة تكشف عن صدورهن وأفخاذهن، مستعجلات. خمن الرجل أنهن بائعات هوى، فسح لهن الطريق على الدرج. وجد كفافي قد لبد ملتزا على الجدار كصبي خائف مذعور، كن يتضاحكن ويتبادلن كلاما بذيئا ومختلطا، إحداهن وربما كانت الأجمل لمت علكها في فمها وقذفته كرصاصة إلى صدر كفافي، حيث يلتمع طرف قلم ذهبي في الجيب الصغير، الرجل وكفافي نظرا إلى قذيفة الغانية تسقط فوق القلم تماماً كمسمار وتثبته في مكانه.

رأى دمعة تنساب على خد كفافي بينما امتدت يده مرتعشة إلى القلم وأسقط عنه علك الغانية، وأعاده إلى جيب صدره، انحنى الرجل له وهو يمر بجانبه خاشعا بينما ظل كفافي ينظر إليه قلقا مستنجدا، ماذا يفعل لهن؟ كن قد توارين سريعا في شقتهن. حين صار الرجل في الشارع وجد نفسه يفكر كيف سيكتب كفافي قصيدته وقد لوثت قلمه علكة ممضوغة بفم غانية وقحة؟ رأى القلم كنصل حاد ناصع، يخترق صدره متجها إلى القلب. أحس بذنب أنه لم ينجده، ود لو يعود ويصلح الحال، لكنه وجد الأمر حساسا ويصعب الدخول فيه. ثم إنه وقع وانتهى بسرعة، لكن كفافي شعر أن ما فعلته تلك الغانية الجميلة والمستهترة بنفس الوقت، هو مقطع من قصيدة كان غائبا عنه ومن الحسن أنه التقاه على هذا النحو، ويستحق عودته من القبر، بذلك سيكتبه أفضل! فسارع لصعود الدرج إلى شقته لا يفكر بشيء غير قصاصة ورق!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شال فتاة حسناء، نار في القلب!

منذ أسبوع تقريبا، لم يغادر شقته الصغيرة في منفاه الذي امتد به طويلا؛ كان يعيش وحيدا، يتمنى فقط أن تنساه الدنيا ومن فيها. لكن حدثا بسيطا قلب مزاجه، ثمة نحلة ضلت طريقها ودخلت من النافذة فأخرجها برفق ورقة، واستجابت له، رآها تنطلق بعيدا كأنها تومئ شاكرة. أحس بنشوة، وبثقة تملأ جسده الذي كان خاويا قبل قليل. أبدل ملابسه، خرج من الشقة متمهلا، كعادته تحاشى الأماكن أو المقهى التي يتجمع بها أبناء جلدته، فقد انسحب عنهم، درء لفظاظة لا يدري متى تنفجر وتتلف كل شيء في روحه! مهما رأى الأشياء كابية هامدة؛ لكنه لا يستطيع إلا أن يرى تألق النهار وشمسه الساطعة في هذا اليوم الصيفي النادر، مخلفا وراءه أشهر الصقيع والظلام الطويلة في السويد. من شارع فرعي أقبلت فتاة شق راء رشيقة، بثياب أنيقة، ووجه جميل، وعينين فاتنتين حبست قلبه فوراً خلف رموشهما! مسترخية كأنها مثله وحيدة مهجورة في حجرة صغيرة منسية وقد خرجت لتوها من صمتها وحزنها. انعطفت إلى الشارع الرئيسي الذي يسير فيه، وسبقته! صار يرى ظهرها وقوامها الفارع العامر، في سره ش كر النحلة التي دفعته للخروج، لم يكف عن تأملها شاعرا بنشوة غامرة. رأى شالها ينحل عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كتفها ويسقط على الأرض خلفها؛ دون أن تشعر به، فقد ظلت مستغرقة في مشيتها المتمهلة. فرح بسقوطه، ركض نحوه مثل ضائع وجد جسرا على نهر، وكأنه هبط من السماء ليوصله إليها! حمله بخشوع، لونه الأحمر، ملمسه الحريري وسنجافه الذهبي، أشعلا نارا في كيانه، حمله قريبا من صدره، بخفة صار أمامها، وبنظرة ممتنة متضرعة وابتسامة مرتعشة قدمه لها:

ـ هذا شالك، سقط منك!

نظرت في وجهه مبتسمة، تناولته منه مكتفية بكلمة:

ـ شكرا!

ثم أشاحت عنه، وواصلت سيره ا كقارب ملون أنيق يشق عباب البحر!

تلكأ في سيره خلفها محبطا، تباطأت خطواته، طالت المسافة بينه وبينها، ودخلت منطقة الأسواق، وضاعت في الزحام. قال في نفسه " الفتاة متعالية جدا" ثم قال، ولكن لا، ربما هي ليست كذلك، فقد ابتسمت لي وشملتني بنظرة حانية، ربما احترمت شيبي وعمري ومن الواضح إنني أكبرها بما لا يقل عن عشرين عاما، ماذا ينبغي أن تفعل أكثر؟ حسنا أنها لم تفتح محفظتها لتعطيني نقودا كما يفعل بعض السويديين مع اللاجئين عطفا أو استهانة، نظرت لي باحترام ألا يكفي هذا؟ كيف أتخيل أن شالا مهما بلغ جماله وقيمته أن يكون شراعا لقاربي المحطم؟ لكن ينبغي أن أقر أنها تركت شالها في قلبي نارا مشتعلة. استدار عائدا إلى حجرته، محبسه الذي أختاره، لا يدري أيلعن هذه النحلة التي جعلته يخرج ويحترق بهذا الشال الأحمر، أم يشكرها أنها أخرجته لتضع في قلبه شال فتاة حسناء، ناراً تدفئه في غ زلته ولا يريدها أن تنطفئ!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الذين كانوا

كلما ذهبت إلى المقبرة لأقف على قبر زوجتي التي رحلت مع طفلنا الأول والأخير أثر ولادة متعسرة به! يكون طريقي على تجمع لطلبة أمام باب أحد المعاهد فأراهم يجهدون أنفسهم بكل الطرق المضحكة ليخفوا بقايا طفولتهم عن زميلاتهم، والفتيات الجميلات الطيبات لا يتوانين عن الصعود بهم وهم أطفال الجامعة إلى الشرفات العالية ليرينهم أبراج السماء وهي تؤشر مقطبة أو مبتسمة، والغيوم إذ تمر تحت أجنحة الطيور في سماء المدينة! وتنثال أفكار برأسي، عن هؤلاء الذين كانوا حتى البارحة أطفالا يلطخون ثيابهم، بلبن أمهاتهم، ودموعهن، وبالحلوى، أو البراز والوحل، أضحوا اليوم محمولين على ومضة برق، طلابا في الجامعة ومعاهدها! لأصل إلى نقطة الألم أن طفلي الذي قضى دون أن يتنفس نسمة من هواء الدنيا لو كان قد بقى لكان طالبا معهم الآن!

أود لو أقترب من كل واحد منهم وأقول له:

ـ لا تدع الوردة تذبل في أعماقك! لا تبتعد عن النبع، وتذكر المنحدر!

اليوم انحرفت خطواتي قليلا ووجدتني في حدائق البناية. كان أحدهم مع زميلة له في خلوة عند منعطف ممر ضلت إليه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خطواتي، أسفت إنني عكرت عزلتهما لكن لم يكن من مناص إلا أن أسأل الشاب:

ـ أين الطريق إلى المقبرة القريبة من هنا؟

أحسست في نفسي لهفة ملحة لو يسألني:

ـ من لك في المقبرة؟

وددت أن أحدثه أنني مثله كنت ذات يوم أبحث عن ممر ظليل اجلس فيه مع حبيبتي التي تنتظرني الآن في القبر ثم أمضي أحدثه بما وقع لنا! لكنني لمحت في عينيه بريقا متقلبا كشاشة تلفون حديث وكلماته تنطلق بلهجة استنكار وحنق:

ـ لا طريق من هنا إلى المقبرة!

وأشار بضجر وضيق جهة باب للخروج.

ـ يمكنك الخروج من هناك؟

ونظر إلى فتاته متباهيا أن الشيخ صار بيده طفلا ينتظر إشارته شكرته، وهممت أن أقول:

ـ كل طريق يفضي إلى المقبرة

لكنني أمسكت نفسي ولمتها أنني من انتهك عزلتهما ناسيا أو متجاهلا حكمة توصلت إليها بنفسي أننا وقت الحب ينبغي أن ننسى الموت، ووقت الموت ينبغي، إذا استطعنا، أن نتذكر الحب!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مزاج الطيور

إنها أنثى البلبل، رافقتني داخل قفصها في شقتي لأكثر من سبع سنوات، كل يوم أسمع منها تغريدة مختلفة، حزينة جميلة دائما، هي من تسلمني للمساء بنغمة هادئة حنونة، وتوقظني صباحا بنغمات نشيطة فرحة وكأنها ليست سيدة الأحزان كما أسميتها. اليوم بعد أن سمعت شدوها الحزين الجميل، فجأة أحسست بالخجل إنني سجنتها في هذا القفص الذي رغم أناقته وحرصي على نظافته كل يوم وتموينه بأفضل الحب وأنقى الشراب، لكنه يظل سجنا. أيليق بي أن أكون سجانا لهذه المخلوقة الجميلة الذكية المرهفة في غنائها ورفيف أجنحتها، هي أنيستي في وحدتي ويعز علي فراقها؛ يجب أن أهبها حريتها وأدعها تحلق في الفضاء الواسع وبالتأكيد تستطيع أن تجد ما تأكله وترتوي به من ماء أو فاكهة، أو بذرة هنا أو هناك. خجلت من نفسي أنني لست فقط أتلاعب بطعامها إقلالا وإكثار لأحصل على غنائها بل إنني كنت آتي بتين ناضجة مكتنزة بحلاوتها واضع فيها ماء وأدعها حتى تتخمر، وأقدمها لها فما أن تزق من عصارتها التي تفوح منها رائحة الخمر حتى تسكر وتشرع في غناء طويل لا ينقطع إلا بخلودها للنوم، اليوم قررت أن أنهي هذه اللعبة الظالمة في التلاعب بمشاعرها وأحاسيسها، نعم يجب أن أطلق سراحها! أنزلت القفص وضعته في شرفة الشقة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وفتحت بابه. خمنت أنها ستطير على الفور كسجين لسنوات طويلة يفتح له باب السجن، دهشت حين وجدتها تتنقل على رفوف القفص تحاذر أن تقترب من الباب قدرت أنها بقيت تخشاني أن أمسك بها ولا أسمح لها بالانطلاق بعيدا. انسحبت تشاغلت عنها فأنا أيضا لا أريد أن أرها وهي تغادر بيتي، يحزنني فراقها كثيرا، تشاغلت بإعداد ق دح قهوة احتسيته على مهل وحزن، وقد انهالت في روحي ذكرى فراقات كثيرة أليمة موجعة!

ثم مضيت إلى القفص معتقدا إنني سأراه خاليا، لكن دهشتي كانت عظيمة حين وجدت أن طيرا آخر قد دخل القفص وراحا يتطايران معا داخله يلعبان ويمرحان وكأنهما يتناجيان، ويبوحان ويتساران هي بمعانتها معي والآخر بمعاناته مع الفضاء أو قفص آخر! مددت يدي إلى الطير الغريب تفحصته بخبرتي مع البلابل؛ إنه ذكر، ما هذا؟ كيف عرف طريقه إلى هذه الأنثى الجميلة، كيف عاف الفضاء الرحيب وجاء يحشر نفسه معها في قفص، وشقة صغيرة، وددت لو أجعله ينطق، عدت أقربهما م ن الباب وأهز القفص مستفزا لهما كي يطيرا بعيد؛ لكنهما أصرا على البقاء داخل القفص.

عدت إلى فراشي منهكا، ثمة سنة من النوم أخذتني ورأيت نفسي أحاورها:

ـ ما هذا الذي تفعلينه يا عزيزتي أتحت لك الحرية فلم تقبليها والأكثر جررت طيرا آخر لسجنك!

ـ إنه الحب يا عزيزي

ـ ولكن أيحلو الحب في العبودية؟

ـ لا طبعا! الحب فقط يخفف منها يجعلها محتملة بعض الشيء أضافت ضاحكة:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ ولكنك رجل طريف أليف؛ السجن معك طيب ومعقول ـ السجن يظل سجنا، والسجان هو السجان حتى لو كان ملاكاً ـ نعم دعك من هذا فقط ابق لنا باب القفص مفتوحاً لنطير متى نشاء!

استيقظت ونهضت مسرعا إلى القفص، وجدت الطيرين قد غادرا القفص، لكنني لم أحمله من مكانه وأبقيته عند شرفة الشقة المفتوحة على الفضاء، فقد يعودان؛ من يدري! صرت أحن إليهما منذ الآن، وربما أحن لمهنتي كسجان أيضا، من يدري، هل عرفت مزاجي؛ لأعرف مزاج الطيور؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أنا وقطة ديكارت، وغليون ماركس!

في منتصف التسعينات وبعد حادث غامض وقع لي لا أدري قديما أم حديثاً ولم أعرف كنهه حتى الآن؛ قررت أن أدرس الفلسفة في ألمانيا، علني أعرف سره وأنتهي من كوابيس تلاحقني ليلا ونهارا.

شجعني على ذلك ليس أنني أحد أتباع ماركس وهو مولود في ألمانيا، بل كوني الآن لاجئا سياسي فيها، أعزب وقد قاربت الخمسين، ولا أعباء عائلية تثقلني، وبدأت أتقن الألمانية تقريبا. بمساعدة من جمعية إنسانية حصلت على منحة صغيرة من أحد المعاهد في برلين وشددت الرحال إليها من مدينتي الصغيرة، في أقاصي الجنوب الألماني، حاملا معي قطتي التي كنت مولعا بها ولعا كبيرا كأنني اختصرت بها عائلتي من غادروا الدنيا، ومن بقوا ولا صلة لي أو لا سبيل لي إليهم لأسباب كثيرة! وصلت برلين عصرا. خيل لي أن الناس يسيرون في الشوارع ببطء وتمهل كما لو كانوا داخل فيلم على الحركة البطيئة. ربما رأيتهم هكذا بتأثير أفلام قديمة رأيت فيها الناس يتراكضون هلعين أيام الحروب التي ابتلي بها هذا البلد الجميل الغني على مدى عقود من القرن العشرين، أو ربما بتأثير أجواء ذلك الحدث الغامض القديم الذي وقع لي ومزق ذاكرتي ونفسي إلى

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حد كبير!

وقع اختياري على شقة صغيرة لطيفة نوعاً ما بإيجار مناسب ولكن مالكتها العجوز حين عرفت أن لدي قطة؛ أصرت على رفع الإيجار. دفعت لها إيجار ثلاثة أشهر مقدما مع مبلغ تأمينات غير قليل. وقعت العقد، وظننت أن الأمر قد انتهى؛ لكن العجوز اللجوجة ظلت تريني كل جانب من الشقة وكل قطعة من أثاثها العتيق المغبر، أو أدوات مطبخها شبه الصدئة المناقضة لموقع الشقة الجميل وهندستها، معلقة تارة ومنذرة تارة أخرى بينما القطة راحت تدور في جوانب الشقة وتتفحص حجرتها الوحيدة وصالتها ذات الأريكة الواحدة، كانت العجوز نلتفت نحوها لتقول:

ـ القطط فلاسفة الشك، أكاد أجزم أن القطة هي التي علمت ديكارت الشك!

ثم تعود لتحدثني عن أشياء الشقة مبينة أهميتها لديها وضرورة حفاظي عليها، وإلا فإن علي دفعا ثمنها كاملا! حتى أنها تحدثت عن ملعقة قالت أنها فضية عريقة وتكاد تكون تحفة أثرية منحدرة من القصور ألمانيا القديمة التي سكنها نابليون في غزوه لها! مؤكدة أن أطباق وكؤوس الشقة ليست فارغة بل مليئة بموسيقى بتهوفن وأشعار شيلر وجوتة، بقيت مستغربا كيف هذه العجوز تضع هذه التحف النادرة التي لا تقدر بثمن في مطبخ مستأجر عابر مثلي؟ ما جعلني أتصور أنني في حلم لا واقع حقيقي، وإن في الأمر ثمة تهيؤات لدي للإفلات من وقائع محزنة؛ لكن صوتها يعيدني إلى الشقة وإلى الواقع الماثل وهي تطفق متحدثة دون توقف كأنها معلمة والأشياء في مطبخها أو الصالة الصغيرة مجرد وسائل إيضاح! كانت غزيرة المعلومات، خمنت أنها ربما كانت مدرسة، أو كاتبة، وحين انتهت من كل ذلك جلست لتقول وبلهجة صارمة:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ أي ضرر تحدثه أنت أو قطتك الجميلة لأثاثي أو مقتنياتي الأخرى سأقتطع مقابله مبلغا من التأمينات! أنظر إلي قطتك كيف تعيد جولاتها في الشقة تشك في انطباعاتها الأولى فتعيد تفحصها! رغم إنني احترمك وأثق فيك إلى حد ما لكنني أشرح لك عن كل شيء فأنا أرى أن الشك ضروري، أرجو أن لا تستهين بكلامي!

ثم أخيرا أخرجت ورقة طويلة كملحق للعقد وطلبت؛ أو بالأحرى أمرتني، أن أوقع عليها، قلت:

ـ اسمحي لي أن اقرأها بتأن فهي طويلة.

حدجتني مستنكرة، قلت محاولا تطرية الجو:

ـ تعلمت من قطتي التأني في تناول الأمور!

وقعت لها على ما أرادت وأخذت أوراقها وخرجت. ورغم إنني شعرت بالحنق نحوها؛ لكنني وجدتها محقة فهذه الشقة هي ثمرة جهدها الطويل ومن حقها أن تطمئن عليها، رغم أنها أتعبتني، لكنها جعلتني أتذكر كيف أنا وكثيرين مثلي سلمنا أرواحنا ومصائرنا لهذا أو ذاك دون شك بهم أو تمحيص أو عقد، أو حتى كلمة شرف منهم؛ ولو على سبيل المجاملة! فجأة وبشكل ما أحسست أن هذه العجوز قربتني من دهاليز ذلك الحدث الغامض المشئوم! ولكنها بشكل ما جعلتني أتوجس خيفة أو قلقا من عيشي بين الناس هنا، وبدأت أندم على مغادرتي البلدة الصغيرة في الجنوب الألماني لكنني كنت أتطلع لمعرفة العالم من خلال معاهدهم في العاصمة وأستزيد معرفة بفلاسفتهم العظام خاصة السيد ماركس والذي كانت أفكاره أو بشكل أدق ما أوصلوه لنا من أفكاره سببا بعجز في عضلة قلبي اثر تعذيب شنيع في سجون بلادي فقط لينتزعوا أفكاره من رأسي! وشلل يدي اليسرى، إثر رصاصة أصابت صدري وبمعجزة لم تمزق القلب، خلال ما سمي بكفاحنا المسلح في الجبال.خطر لي أن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أكلم صديقي العراقي المقيم في ألمانيا منذ سنوات طويلة الذي ورطني مع هذه العجوز المملوءة بالشكوك التي أعادت لي شيئا من كوابيس وطني الذي هربت منه، لكنني مع هذا قررت أن أتريث فقد أحسست أن لجاجتها بدأت تقربني من كوامن مغلقة في أعماقي. كنت مرهقا وبحاجة للنوم؛ أبدلت ثيابي بسرعة وألقيت نفسي على الفراش، وغططت في نوم عميق رأيت فيه كالعادة مختلف الكوابيس! استيقظت على صوت جرس الشقة حتى إنني رأيته في آخر كوابيسي غرابا يزعق بمكبر صوت، كانت الساعة الحادية عشرة صباحا، نهضت فزعا مرعوبا قلت: ما هذا؟ غادرت وطني مرعوبا وها أنا هنا أعود لرعب آخر، فتحت الباب وأنا بملابسي الداخلية، كانت العجوز أمامي! ألقت تحية مقتضبة ودخلت في موضوعها بينما كنت أرتدي ثيابي على عجل، قالت:

ـ جئت لأرى جدران شقتي. عرفت أمس من صديقة قديمة أنكم تكتبون على الجدران هلوساتكم وما يخطر لكم من أفكار وأشعار! أريد أن ندون في ملحق العقد عدم جواز ذلك، وما يترتب على خرقه من غرامة! حاولت أن أشرح لها أن هذا لا يحصل لنا هنا إنما في بلداننا عندما كنا مسجونين أو محكومين بالإعدام ونتعرض لتعذيب مميت ونضطر أن نكتب بأظافرنا أحيانا وصايانا وخواطرنا بل انسرحت في الحديث لأقول:

ـ بعض الناس يكتبون شتائم وسبابا للحكومة على جدران المراحيض العامة.

قطعت استرسالي قائلة:

ـ مالي ومراحيضكم العامة؟ أنت هنا في شقة لطيفة محترمة!

فاعتذرت لها عن هلوستي، وكأنها تعاطفت معي سألتني:

ـ على ماذا كانوا يسجنونكم أو يعدمونكم؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ هم يسجنون ويعدمون الكثيرين لأسباب ملفقة أو واهية عادة ولكنني سجنت لأنني كنت أعتنق أفكار فيلسوفكم كارل ماركس!

قالت:

ـ ماركس ليس فيلسوفا، إنه مفكر اقتصادي وسياسي كبير وخطير، لا غير، وقد بالغ في ثقل رغيف الخبز، حتى جعل كل رغيف بوزن جبل عليه فصيل من الثوار ببنادقهم ورصاصهم!

قلت:

ـ ولكن لديه نظرة عميقة شاملة للعالم ومصائر الناس، وحكمته في ذلك كانت عميقة ومقنعة لكثيرين ولا تنسي أن الفلسفة هي حب الحكمة، وأفضلها ما يغير العالم لا ما يحاول تفسيره أو يتفرج عليه!

ـ ما علينا كان على ماركس أن يقرأ ديكارت جيدا، لا أدري من أين أتى بهذه اليقينية المطلقة لأفكاره! فجعل الملايين يقتلون أو يتعذبون بسببها، ثم لا يصلون سوى إلى الدمار والخيبة، ماركس كان بحاجة إلى قطة تعلمه الشك لا إلى غليون ملأ العالم دخانا وأناشيد فارغة!

(وبعد أن أخذت تتحدث بالفلسفة وجدتني أناديها سيدتي)

ـ أنت تظلمينه يا سيدتي كان هو يشك بنظريته، ومؤمنا أنها ستتطور وتتغير مستقبلا بفضل الدارسين أو الممارسين المناضلين حقا لا ادعاء وجهلاً

ـ لا بيانه الشيوعي كان مانفيستو حربي وعسكري وقتالي وهو منفر وغريب في عالم الفلاسفة!

ـ البيان تضمن إشارات رئيسية لا تفصيلية، ماركس رفض مقترحات من أتباعه لصياغة نظريته بمواد قانونية وسخر منهم، وقال مع هؤلاء اكتشفت إنني لست ماركسياً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(كانت كلما حاججتها تقول" ما علينا" ثم تنتقل إلى فكرة أخرى) ـ وكان على أتباعه أن يقرءوا ديكارت

ضحكت، فقد تصورتها ماري انطوانيت، إذ قيل أنها حين أعلموها بأن الشعب الفرنسي قد ثار طلبا للخبز قالت؛ لم لا يأكلوا الكيك؟ قلت:

ـ يا سيدتي قادتنا وهم أتباعه، لم يقرءوا ماركس نفسه، كيف تريدين منهم أن يقرءوا ديكارت؟ يقينية هؤلاء السطحيين السذج هي التي قتلت الآلاف وتركت الملايين في عذاب وشقاء، وشلت يدي وأصابت قلبي بعجز قد لا يمهلني طويلا!

راحت تحدثني عن عملها، قالت أنها أستاذة فلسفة متقاعدة وأحيانا تلقي محاضرات في محافل عامة تدعى إليها وإنها اشترت بيتا في الريف وتريد العزلة لتكتب عن الشك كضرورة إنسانية فيه لذلك أجرت شقتها وقد تبيعها بعد أشهر! قالت أنها قضت زهوة شبابها في ألمانيا الشرقية تحت ما أسمته "ظلام الشعل الشيوعية"، ذلك جعلني أعرف سبب تحاملها على ماركس! وبعد تردد أعلمتها أنني جئت لأدرس الفلسفة أو أتلقى دورات مكثفة فيها دون أن أسترسل متحدثا عن معاناتي مع غموض ممض في أعماقي! شملتني بنظرة فاحصة وقالت طالب الفلسفة لا عمر له! بعضهم في التسعين بدأ يدرسها لا تنس أبدا أن أول درس في الفلسفة هو الشك، عليك الشك بكل شيء حتى في كونك الآن حيا أو ميتا! كانت القطة قد توقفت عن جولاتها التفقدية في الشقة وركنت في زاوية وبدت ناعسة موشك على النوم، قالت العجوز

ـ انظر إليها؛ أنها بعد جولة الشك المشروعة اطمأنت ونامت صدقني الشك هو محرك الحياة، وحارس طمأنينة الإنسان!

لا أدري لماذا انتفضت أعماقي، أحسست كأنني أقترب من معرفة ذلك الحدث الغامض الذي صار ينخرني ويوشك أن يتلف

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أيامي وحياتي كلها!

بينما هي تقترب من الباب قالت:

ـ رغم أنني أتفهمك وصرت قريبا من نفسي لكن هذا لا يعني أنني لن أمر على الشقة بين وقت وآخر لتفقد وضعها.

قلت:

ـ الشقة لا زالت مفتوحة لك في أي وقت!

شعرت بشكل ما أن هذه العجوز وضعتني بين قطتي التي صارت فجأة قطة ديكارت وغليون ماركس بدخانه المتصاعد بثقة مطلقة في أنحاء العالم خاصة من بنادق الثوار! ألم تقل عليك الشك في كل شيء حتى في كونك حيا أو ميتاً مرة أخرى شعرت أن شيئا من غموض أشياء كثيرة في أعماقي بدأ يتلاشى ولكن بقي الكثير!

مع ذلك كلمت صديقي عن وضع مالكة الشقة خشية أن أصل معها إلى وضع لا مفر فيه من إيجاد سكن آخر! قال صديقي من الممكن أن أجد لك شقة أخرى لكنك ستخسر مبالغ الإيجارات مع مبلغ التأمينات، فقررت الاحتمال لفترة أخرى، هل انتهى الأمر معها عند هذا الحد؟ بعد أيام وصلتني رسالة على عنوان الشقة من العجوز تدعوني فيها إلى محاضرة لها في احد النوادي الاجتماعية عنوانها "القطة التي علمت ديكارت الدوران حول نفسه والكرة الأرضية"' وفي ليلة أرق وكوابيس حادة صرت أسمع محاضرتها قبل أن تلقيها، وأتجشم عناء حضورها، عرفت أنها ستتحدث عن قطتي وتدعي أنها قطة ديكارت، وستقول " الشك ليس لدى ديكارت وحسب أنه فطرة حيوية في الطبيعة كلها، من الجبل إلى طبقات الأرض غير المطمئنة لمكانها فتنزلق وتزلزل أو تفجر البراكين، إلى القطة فهي حين توضع في بيت آخر لن تأكل من الطبق الشهي الذي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قدمته لها حتى لو كانت جائعة بل تروح تدور على الحجرات والزوايا تتفحصها طويلا ثم تعود لتأكل مطمئنة!

القطة سيدة الشك بل هي التي قالت قبل ديكارت: أنا أدور في البيت إذا أنا موجودة! ومع ذلك كثير من البشر يطردون الشك من رؤوسهم فتصطادهم حيتان الأرض! سيدور نقاش كثير، وسينهض طالب ليقول: جرعة الشك التي تقدمينها لنا كبيرة جدا بل هي أكبر من جرعة ديكارت نفسه، قد نحتاجها في حياة سياسية استثنائية طافحة في الفساد ولكننا لا نحتاجها في حياة طبيعية نظيفة نسبيا، هل أحتاج لجرعة الشك هذه مع حبيبتي؟ وقبل أن ينتهي ردت: "بل حبيبتك تحتاجها معك أيضا، علينا أن نشك في كل شيء سواء داخل السماء أو على الأرض لا مقدسات مع الشك، ولا شك مقدس فالشك ذاته يحتاج لشك آخر قد ينقضه أو يعززه! لا تسلم قيادك لأحد دون أن تنفضه كالثوب الذي سترتديه شكا وتفحصا وبحثا، فقد تكون قد كمن فيه أفعى! "وسأحس برجفة خوف في القاعة وأدرك أنا ثقل ما فعلته بنفسي وفي حياتي الطويلة ومن ورطتهم معي في طريقي، وسأخرج إلى الهواء الطلق وأحس بنظراتها تخترق ظهري لكنها مهما كانت جارحة تظل تضيء أعماقي وأجد أن أصابعي بدأت تتلمس خيط السنارة الذي مده أحدهم في أعماقي ليصطاد روحي لشخص ما أو جهة ما، بل صرت أرى كوابيسي كيف تتكون وكيف تهاجمني كوحوش تسكن الكهوف وتجوب الليل، وأحس إنني اقترب مما حدث لي قديما وليس الآن وحسب. ولكن علي بنفس الوقت أن أقر إن أيامي قد تلفت كأوراق شجرة جفت جذورها وماتت فولت سدى وهيهات أن تعود!

لم أجد ضرورة لدراسة الفلسفة في معهد أو جامعة، هذه الرحلة القصيرة المريرة وضعتني أمام حقيقة أهملتها طويلا وسرت مغمض العينين وراء ظلال هاربة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تركت الشقة، أرسلت مفتاحها إلى عنوان العجوز بالبريد المسجل مع حفنات من الشكر والامتنان متنازلا عن بقية مبالغ الإيجارات والتأمينات! وأنا في محطة القطار احترت إلى أين أذهب، رغم أن الحدث الغامض الذي وقع لي بدأ يتضح بعض الشيء، احترت هل أعود إلى بلدتي الصغيرة في الجنوب الألماني وإلى مهنتي في قطع الأشجار في الغابات الم وحشة حيث كلما هوت شجرة على الأرض أتذكر كيف كان يهوي على الأرض رفيق من صفنا الطويل الذي قارب الثمانين، برصاص قتلة جئنا لنصرتهم في الجبال! وعندما جاء دوري ظننت إنني مرقت من رصاصهم واختفيت حتى ظهرت هنا ظمآنا لا إلى الماء أو الخمر بل إلى الفلسفة! هل أعود إلى تلك الجبال حيث كنا تائهين هائمين كاليتامى نقاتل مع فصائل كردية في الجبال لا أعرف أين تقف رايتنا من رايتهم، وماذا هم يريدون وماذا نحن نريد؟ وحيث كنا كمن يخلط الدم باللبن! هل أعود إلى ذلك السجن حين علقت في المروحة الكهربائية ببغداد لثلاثة أيام لينتزعوا اعترافا مني فأصبت بقصور في عضلة القلب. وبشلل في يدي اليسرى، هل أعود لذلك البيت مسقط رأسي وقد تهدم ومحاه الزمن تماما، حيث لا أحد يعرفني هناك ولا أعرف أحدا، ولكن ماذا دهاني هل أتيت أنا هنا حقا لأعود؟ لقد حللت بثلاثة أماكن لا يمكن لمن حل بها أن يخرج سالما، وهذه القطة التي لا تزال مضمومة إلى صدري أليست دليلا على وجودي في هذه الدنيا؟ وقلقت حقا إذا كنت حقا لا وجود لي هذه الدنيا وإنني قد هويت كما الشجرة في الغابة، لذا لست أنا من يقطع الأشجار في الغابة! أم أن رصاصهم لم يصب مني مقتلا، وجاء من حملني وعولجت هنا وشفيت لكنني لا زلت أتصور إنني قد مت حين هويت على الأرض بين الجثث، بينما كان مقتلي هي الفكرة التي تبينت خطأها في رأسي لا شيء آخر! رغم إن الكثير من الغموض قد تلاشى لكن لا زال لدي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من الغموض ما يكفي لحيرتي وشعوري أنني هنا، ولست هنا. قلقت على القطة ما مصيرها إذا لم أكن م وجودا، نظرت إليها، كانت قد انسلت مني دون أن اشعر كأنها لا تريد أن تكون دليلا على وجودي. راحت تسير في محطة القطار تتفحص جوانبها كأن لا أحد معها، ولم تعرف أحدا يوما!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للحمامة مخالب!

عندما تسلم المطيرجي الحمامة من زميله، صفعها كأنها طفل ارتكب مخالفة شنيعة! كل ما فعلته الحمامة أنها خرجت عن سربه وأمام ناظريه والتحقت بسرب أحد جيرانه، بل حطت على سطح بيته ودخلت قفصه، وتآلفت مع سربه وراحت تطير معه بعيدا ولا تعود لبيتها الأول! وها هو يعيدها له بعد مفاوضة ومساومة، لم يكن همه في ما قدم من تنازلات ونقود أن يستعيد هذه الحمامة، فهو صار يراها غبية سيئة قبيحة، ولا تجيد الطيران! كان يريد أن ينتقم منها! أن تلتحق حمامة بسرب مطيرجي آخر تلك جريمة تمس الشرف ولا يغفرها إلا بعد عقاب مرير، وهو يرى الغفران يعيق التئام جرح كرامته، وما ألحقته من عار وخزي بسمعته كمطيرجي شهير في الحي قد لا يمحى حتى لو اقتطع من أسراب المطيرجية القريبين والبعيدين الكثير من حمامهم الطائر المحوم في فضاء المنطقة!

طيلة الطريق إلى البيت يكلمها مؤنباً ومتوعداً "يا حقيرة، سأسجنك في غرفة مظلمة وأحرمك من الطعام لأيام، سأجعلك تموتين ببطء قبل أن أذبحك وأشويك والتهم عظامك مع العرق"

كان قد حّضر الحجرة، الزنزانه، زاوية صغيرة مهجورة مغلقة من البيت يلقون فيها أغراضا متروكة، وضع على كوتها الصغيرة ستارة كي لا ترى هذه المجرمة النور. مجرد بصيص

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منه تهتدي به لطاسة صغيرة وضع فيها القليل من الماء، ولكن دون أي شيء تأكله! كي تعاني من الجوع أياما وتتعذب، ولا تموت سريعا من العطش!

كل يوم يطل عليها أكثر من مرة، يقف عند الباب، ليتأكد من بقائها حية تعاني ويلقي عليها سبابه وشتائمه ولعناته ويصب على ريشها الجميل نار غضبه، وفي كل مرة يلقي عليها محاضرة عن عقاب من لا يلتزم بأخلاق الطيور وقانون المطيرجية خاتما خطبته: " لا مكان عندي لمن يخرج من السرب، ويستهتر بأخلاق الطيران، ولا ينضبط! "

حملت أمه إليها في غيابه شيئا من الحبوب والماء ولكنها وجدت باب الحجرة موصدا. كان يقفل الباب على الحمامة ويضع المفتاح في جيبه وفي المقهى يحدث أصحابه المطيرجية وغيرهم بعقابه للحمامة الخارجة عن سلطته وقانونه فيتضاحكون، ويسخر بعضهم منه!

بعد أيام من سجنها قدر أنها كافية لتأديبها وجعلها حمامة مطيعة ملتزمة بتعاليمه وإشاراته، وإلا فإن سكين الذبح جاهزة، فتح الباب ليلقي عليها خطبته النهائية الحاسمة! وقف عند إطار الباب وقبل أن يفتح فمه قفزت الحمامة كالقذيفة باتجاه ضوء النهار مرتطمة بوجهه خادشة بمخالبها الطويلة الحادة ما حول عينيه، تراجع واضعا يديه على وجهه، بينما الحمامة حلقت عاليا، ابتعد مولولا:

ـ هذه قطة شريرة وليست حمامة، صارت مخالبها طويلة، أنا لها، هذه المرة سأقلبها على الجمر ما أن أمسكها!

اقتربت منه الأم حاملة منديلا لتوقف الدم السائل من تحت عينيه، وهي بين مبتسمة وقلقة على ابنها الذي ترك المدرسة، وأهمل كل شيء وانغمس بعالم المطيرجية، قالت بحرقة ونبرة غاضبة، وكأنها تتحدث عن معاناتها وأحزانها القديمة الخاصة:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ سجن وجوع وإهانات، ماذا تنتظر من الحمامة؟ حتى إذا لم تكن بمخالب ستنبت لها مخالب!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عسل الحكمة!

التقى بي على الطريق الريفي الطويل خلف بلدتنا أيس، لا أدري كيف عرفني على البعد رغم مضي سنوات طويلة على فراقنا، وسحابة الغبار التي أثارته ا سيارته الفارهة، نزل متلهفا ليعانقني:

ـ أين أنت يا صديقي؟ افتقدتك كثيرا!

ـ ألا تدري؟ غرقت في وحل العاصمة.

ـ يا صديقي العاصمة تأكل العمر كلبؤة شرهة شرسة، تعال إلى ريف بلدتنا وزد عمرك عدد الأشجار والأزهار وأقمار الليل! تعال لأريك مناحلي، وذق عسل الحكمة، أيعجبك هذا الاسم؟ وقبل أن أجيبه، ضحك قائلا بسرعة:

ـ أتدري لماذا سميته عسل الحكمة؟ ـ لا طبعا!

ـ إنها من أفضالك لا أنسى أنك كنت تقول في قطاف العسل حكمة عظيمة يجب الأخذ بها حين نراجع ذاكرتنا أن لا نهيج ما فيها من نحل أو زنابير تلسعنا بل نصل بحذر إلى العسل كأن نشغله بباقة ورد! نعم أردت أن أسمي منحلي عسل الذاكرة لكنني وجدته ثقيل الوقع. صعب الفهم!

قلت:

ـ يالذاكرتك المدهشة لكن من الصعب الأخذ بهذه الحكمة فكم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لسعني نحل وزنابير ذاكرتي ولم أصل إلى العسل آه يا صاحبي أهجت مواجعي.

ضحك قائلاً

ـ سأعطيك من عسلي ما يشفيك!

أمر أحد عماله بإعداد أوانٍ زجاجية من أفضل عسله، هدية لي!

وراح يقودني في مناحله، كانت كثيرة، كبيرة ومنظمة، وتنتج بغزارة. ضحك وهو يقول:

ـ عشرات الآلاف، وربما ملايين العاملات، والملكات تحت أمرتي!

ضحكت:

ـ وأنت جالس، ملك الملوك!

عاد يتحدث بفرح وتدفق عن ذكريات صبانا ومطالع شبابنا وقد أضحى كل شيء بعيدا، كان هو آنذاك كثير الكلام، وكنا نستمع له دون ملل، ولا ندري من أين يبتدع القصص المشوقة، لكن اليوم قصته حقيقية، وبطعم العسل!

ـ أطلقت جيوش النحل الطائرة تقطف عبير أزهار الحقول والبساتين.

ـ هل قبل أصحابها؟ ضحك وهو يقول:

ـ بدلا من أن يسقط عبير وغبار الزهر وشهده على الأرض أو ويتلاشى في الريح، حولته إلى عسل في الأواني الأنيقة، ولم أيخس حقهم؛ في كل قطفة عسل؛ لهذا صفيحة، ولذاك زجاجة، ولبعضهم شيء من النقود، وهكذا يسير الحال والكل راض، والكل في فمه ملعقة عسل! ثم لا تنس لدي عشرات العمال والعاملات من البشر، كلهم يأكلون من هذا الخير الوفير!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضحكت، قلت بين الجد والدعابة:

ـ عمل ممتع يجعل الروح تقطر عسلا!

ـ ما رأيك أن تشتغل معي؟

وحين وجدني صامتا، نظر إلي متوسلا وقد طافت على وجهه سحابة حزن، لم أفهمها في حينها:

ـ ليتك تعمل مساعدا لي، معك سأشعر بالأمان، فأنت كما أعرف كنت ضابطا قديرا في الجيش، وأحالوك على التقاعد ظلما، وأنت طيب ونقي، ليس كالعساكر الذين أهلكونا بانقلاباتهم وطموحهم، وشجاعتهم الفائضة عن الحاجة! ضم خبرتك العسكرية لخبرتي مع النحل، ستكون حارس نحل الحكمة الأمين، وسننتج الكثير، ونسعد من حولنا!

ضحكت، واعتذرت وتعللت بوجود أعمال مهمة لدي؛ بينما كنت خالي الوفاض، وفي حاجة وعوز، لكنها عنجهية تعلمتها من حياتي العسكرية، لست وحدي من ابتلي بها في بلدتنا حتى من غير العسكر. بعد أيام على لقائنا جاءني الخبر الفاجع: ثمة أشخاص كمنوا له على طريق مزرعته، وأردوه قتيلا بوابل كثيف من الرصاص! قيل أنهم من جماعة تنتج العسل من مواد كيميائية ضارة لكنها مربحة كثيرا. طبعا لو كنت عملت معه ما كنت أستطيع أن أضمن سلامته، وقد شاع القتل والتآمر لا في بلدتنا وحسب بل في البلاد كلها، لكنني قد أجعل تدابير القتلة أصعب، وقد أحبطها، أو قد أكون مت معه، كم ندمت، وكم بكيت!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انتظار

كنت أقترب من باب المحل الكبير، حين انتهت المرأة الطويلة الممتلئة من إيقاف كلبها عنده، ولوحت له مشجعة، بينما ربض هو مشرئباً مستنداً على مؤخرته محدقاً بي باستنكار وتحفز؛ ما جعلني أرتد إلى الوراء وأعود القهقرى لأجلس على مقعد طويل على مسافة منه، متحاشياً المرور بجانبه ودخول المحل! أنا منذ طفولتي أخاف الكلاب، حين عظني كلب مسعور ونقلوني إلى المستوصف الصغير، أعطوني حقنة في ظهري، ليس هي وحدها التي أخافتني، بل ما كنت أسمعه حولي من أنني قد أصاب بجنون وسعار يجعلني أعض الناس كالكلب، وربما افترسهم!

لذلك بقيت أتحاشى الكلاب وأخشى إغضابهم، زادني خوفاً أن هذا الكلب غريب اللون ضخم وبأنياب بارزة، وإنه يرمقني بعينين حمراوين، وشدقين مفتوحين يمرر عليهما لسانا طويلا، كأنه صار يتشهى لحمي!

قلت لأنتظر حتى تخرج المرأة، كنت من مكاني أستطيع أن أراها من خلف الزجاج، انعطفت إلي قسم الزهور القريب، لكنها توقفت تنتظر أيضا، كانت البائعة تعد طوقاً كبيراً من الزهور، لا أدري إن كان لعرس أم جنازة أو حفلة تخرج! فالأزهار كما نعرف تستدعى دون استئذانها للأفراح والأحزان. ص رت أنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انتظر الكلب أن يذهب، والكلب ينتظر المرأة أن تأتي، والمرأة تنتظر البائعة أن تنتهي من أزهار الأحزان أو الأفراح، ما هذه الورطة؟ لو كان ما جئت من أجله في محل آخر لما جلست هنا أنتظر أمام هذا الكلب. جئت لأمر لا يعرفه ولا يقدره أحد سواي، ولا وجود له مطلقاً في أي مكان آخر سوى في هذا المحل. لكن يا لسوء حظي، الكلب الضخم على الباب. وقت عمل المحل يوشك أن ينتهي، لم تتبق سوى دقائق، ويقف الحارس، لا يسمح بدخول أحد، يسمح فقط بخروج الزبائن، والبائعة مازالت منشغلة. لو كان ما أريده في محل أخر هل سأبقى أجلس ذليلاً منكمشا أمام كلب؟ لماذا مازلت أسمي تلك الفتاة الأجمل من كل ما حولها من زهور مجرد بائعة؟ لم لا أقول الحقيقة؟ أنها حبيبة روحي، هي الزهرة الوحيدة التي نبتت في قلبي بعد أن أضحى رمادا، ولا أمل لي مطلقا بها، لكنها حبيبتي دون أن تدري، وكيف اجعلها تدري وأنا قد جاوزت السبعين، وهي في الثلاثين أو أكثر قليلا، وهي بهذا الجمال القاهر؟ كل أسبوع بمثل هذا اليوم أمر عليها أشتري منها زهرة واحدة بيضاء واحدة، وألقى عليها نظرة؛ أعيش عليها أسبوعي كله بأحلام شبابي المدمر في بلدي القديم، دون أن أنطق ولا حتى كلمة واحدة، دون أن أجرأ على إهدائها الوردة رغم أن الفكرة راودتني الليالي كلها! نظرة قصيرة تمنحني أملا في هذه الدنيا الفانية، تعطي جسدي طاقة البقاء في جليد وظلام هذا البلد الغريب! ولكن اليوم يقف هذا الكلب الفظيع عند الباب. الكلب ما يزال ينتظر، وصاحبته ما تزال تنتظر، وأنا أنتظر، وحبيبتي التي لا تدري إنني أحبها، تبدو متمهلة متأنية في عمل الإكليل ليذهب إلى عرس أو جنازة أو نجاح! بقيت دقائق ويقفل الباب، سأبقى أنتظر رغم أن البرد صار يخترق عظامي، من يدري؟ قد تخرج صاحبته قبل نهاية العمل بدقيقة واحدة، تكفي لأدخل المحل أشتري وردتي وألقي نظرتي على حبيبتي الغافلة وأنصرف!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وصية!

وأخيرا مات الشاعر الذي تنقل بين المنافي كثيرا، لم تبق أرض لم يقذف إليها. كان يقول ولدت وثمة مدفع ملتصق بظهري. منذ العشرينات من عمره وهو مرفوض ومنبوذ ومطرود. اليوم وقد بلغ الثمانين؛ لفظ أنفاسه الأخيرة في بلدة صغيرة في الس ويد تدعى أودفالا، سأل زوجته قبل وفاته بيوم كم المسافة بين أودفالا السويدية حيث سألفظ أنفاسي الأخيرة، و"أيس" العراقية حيث أنفاسي الأولى؟ لم تجبه ليس فقط لأنها لا تعرف حقا، بل فقط لأنها توجست شيئا وراء سؤله، أردف هو، أي يكون عدد الكيلومترات فذلك هو عمق ألمي لا أكثر ولا اقل! شهد مع زوجته في أودفالا البلدة الصخرية البركانية القابعة على لسان خليجي من بحر الشمال الكثير من فصول حياتهما الأليمة، كان يقول لزوجته أنت أكثر عذابا مني، تحملت صروف الزمن، وأطواري الغريبة معه! ومن حسن حظنا أننا لم ننجب، فلا أبناء يتعذبون معنا وبعدنا!

لم يترك لها شيئا سوى كتبه، هكذا كانت تظن، طلب إليها أن تتبرع بها للمكتبة العامة في المدينة، هذا إذا قبلتها، فكتب اللاجئين تثير شكوكا أيضا!

قبل أسبوع من موته كان قد سلمها مظروفا، طلب منها أن لا تفتحه إلا بعد موته، والآن جاء أوانه، وجدته يتضمن رسالة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مقتضبة " آسف يا عزيزتي إنني سبقتك إلى القبر أو ما يسمى الراحة الأبدية، ذلك أفضل لي، كان قاسيا علي لو فجعت أنا بك، معذرة على كل حال، لم أترك لك سوى شيئين: رزمة الدفاتر القديمة والجديدة التي تضم قصائدي والتي لم ينشر منها سوى القليل بأعذار شتى من محرري الصحف ودور النشر " مشاكسة، متمردة، مجدفة، متطرفة، فظة، مارقة، عنيفة متطرفة مرة أخرى، غارقة في السياسة إلخ مما تعلمين" وهذه لا تقتضي منك سوى عود ثقاب واحد. وكومة ألأحذية العتيقة التي كما تعرفين وقعت تحت هوس الاحتفاظ بها لأنها تحمل خارطة المنافي والبلدان التي تنقلنا بينها، أي طرق ودروب الآلام كلها، وهذه أرجو منك وضعها في طرد بريدي وإرسالها إلى مقر (الإتحاد العالمي للعدالة الإنسانية)، ستجدين فوقها رسالة مفتوحة يمكن أن تقرئيها وترفقيها معها.

مرة أخرى معذرة إذ سبقتك إلى عالم الصمت الأبدي، وسأنتظرك هناك! يسرني أن تتأخري على الموعد ما شئت، ولكن لا تأتيني كما كنت تفعلين في الحياة الدنيا: أعني دون أحمر الشفاه، وكحل عينيك العسليتين الجميلتين!

كانت كومة الأحذية في بيتونة الشقة الصغيرة. حرص أن يحتفظ بها منذ أول منفى وطئه، ودخل بها السويد بحقيبة خاصة ما جعلهم يشكون بقواه العقلية ويمنحونه لجوءا إنسانيا لا سياسيا رغم إنه قضى حياته مناضلا سياسيا، ويعد نفسه شاعرا مهموما بالسياسة وبمصير بلده! وجدت رسالة فوق الأحذية المتعطنة:

إلى أعضاء الاتحاد العالمي للعدالة الإنسانية تحية حارة من منفى بارد

أهديكم أحذيتي التي تهرأت وأنا أجوب بها المنافي. أعرف إنها غير صالحة للاستعمال، فأنا من عادتي لا أترك حذاء حتى يتهرأ تماما، لكنها تصلح لاستعمال واحد: أن تلقوا عليها نظرة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

واحدة فقط لا غير، فهي، لا الكلمات، قادرة على أن تريكم أين ذهبنا، ومن أين أتينا، فهي ذاكرة أمينة صامتة ولا بد من ساعة تنطق فيها، كما أن رائحتها فقط هي رائحة مأساتنا كلها. أقترح عليكم إقامة نصب تذكاري خاص بالمشردين والمنفيين والمقتلعين من ديارهم مكون من أحذيتهم المتهرئة، ويمكن أن تكون هذه أولى الدفعات، وستسمعون من ذاكرة هذه الأحذية صرخة تهز أرجاء الدنيا!

طوت العجوز الرسالة، هزت رأسها مبتسمة متمتمة: "إنه ينكت حتى بعد موته"، ولم تستبعد تنفيذ وصيته كاملة، لكنها وجدت أنها لم تسمع يوماً بشيء اسمه "الإتحاد العالمي للعدالة الإنسانية" ولا أين يكون، ومع ذلك قررت أن تسأل الموظفة التي ترعاها في البلدية، فهم هنا في السويد يقولون، أن البلدية تعرف كل شيء في هذا العالم!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أصوات بعيدة

كلما خلا إلى نفسه في الشقة الصغيرة القديمة؛ يسمع أصواتا بعيدة، غريبة متداخلة. خمن أنها أصوات أطفال يبكون، يستغيثون، يولدون للتو، يموتون للتو، كانت تحزنه، تقض مضجعه، تحرمه النوم، وتبقيه حزينا طيلة اليوم. وأحيانا قليلة تفرحه! حين تتبع الاتجاهات التي تأتي منها وجد أنها تأتي من تحت الأرض، أخبر زوجته عنها، هي في السبعين، يتذكر إنه حين تزوجها كانت اصغر منه بعشرة أعوام ولا يدري إن كانت بعد كل هذه الزمن الطويل المثقل بالأحزان ما تزال كذلك، ربما هي أضحت أكبر منه؛ لما شهدت من فواجع وكوارث! تنفرد بالنوم في حجرة أخرى لأنها كثيرة الأنين من أوجاع المفاصل، قالت له:

ـ هذه ليست أصوات بشر، إنها أصوات أنابيب الماء! لا تنس إنها تمر بزاوية من حجرتك، ضع أذنك عليها لتتأكد!

وضع أذنه على الأنابيب، ما سمعه كان أصواتا أخرى، لم يستطع الفكاك من ملاحقة هذه الأصوات الغامضة، صار يعتقد أنها أصوات رجال ونساء عجائز يجلدون، يتعذبون، يحتضرون، يولدون من جديد، يموتون مرة أخرى.

أحس أنه يختنق ويغرق في لجتهم ويختنق.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجد نفسه في حجرة مدير شركة السكن يسأله:

ـ هل بنيتم هذه العمارة على مقبرة؟ ضحك الرجل:

ـ بنيناها على غابة، بعد أن باعوا أشجارها لشركة تصنع التوابيت!

في الطريق خطر له إنها إذن أصوات أشجار وطيور الغابة التي اختفت تحت العمارة لكنه لم يلبث أن استبعد ذلك. جاءته زوجته وقد لج بها الأرق برأي خطير:

ـ إنها أصوات النجوم تنادينا!

ـ معنى هذا إننا سنموت قريبا!

ـ لا، لا إنها مجرد مداعبات نجوم مرحة في السماء..

لكنه أصر على القول:

ـ إنها نداءات لنا من السماء لنكون هناك!

راحت تمازحه قالت ضاحكة:

ـ أنا لن أموت يا عزيزي حتى أشفى من داء المفاصل، كيف أسير هناك كالعرجاء؟

عندما سأل شابا يسكن شقة صغيرة قبالة شقته، كان طالبا في كلية الطب عن ذلك قال له:

ـ أخشى أن يكون سبب هذه الأصوات بعض التهابات في الأذن الوسطى ليتك تأتي إلى المستشفى للفحص، فقط أرجو أن لا تغضب إذا شاركني بعض الزملاء بدارسة حالتك!

انزعج من كلام جاره:

ـ ما هذا يا صديقي؟ تريد أن تجعلني في آخر العمر حقل تجارب!

في هذه الليلة الباردة، وجد الأصوات تقترب و تتضح، شعر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إنـه يستطيع أن يفرز بعضـها، يتعرف علـى أصـوات أليفـة لـه منها، صوت والده، أمـه، أقارب، رفاق كـانوا يصـرخون يـأنون يحتضرون في غرف التعذيب القريبة منه في السجن الذي قضـى فيه سنوات طويلة. أصدقاء قدامى رحلوا قبل سنين وسنين، بعد محاولة تمحيصه الأصوات دون جدوى، أخيراً ثمة صوت وحيد آمر زاجر كأن فيه كل مغناطيس الوجود والعدم يقترب، يمد يدا إليه قائلا بوضوح:

ـ تعال!

ووجد نفسه يتبع الصوت، وجده واضحا ومفهوما وعلى غير ما كان يخشى!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النوم على المكنسة!

منذ سنوات اعتاد الاعتكاف في حجرته حيث يعيش وحيدا، نادرا ما كان يخرج ليمشي ولو قليلا حسب نصيحة الطبيب ليخفف من أعراض السكري والضغط وهو في عمر جاوز الثمانين. كان الوقت آخر العصر والغروب يكاد يحل بحزنه وكآبته. خرج على غير هدى، ولكن خطاه قادته كأنما رغما عنه إلى ذلك الشارع الرئيسي في مدينته التي قضى فيها كل عمره تقريبا عدا سنوات سجونه في مدن مختلفة متباعدة. له في مقاهيه ومنتدياته وبعض بيوته التراثية ذكريات قديمة كثيرة فرحة وحزينة! كان الشارع حتى عهد قريب قلب المدينة، مرت منه كل تظاهراتها وانتفاضاتها، انتصاراتها وهزائمها، وخساراتها ولعقود طويلة مضت، كأنه المُبتدى والمُنتهى! وجد أكوم أزبال ونفايات تسد مسالكه، ثمة كلاب وقطط كثيرة تنبشها فتصفعه رائحة نتنة وتجعله يكاد يختنق. أراد أن يقفل راجعا؛ لكنه واصل توغله مدفوعا بقوة الذكريات. وهالة الشارع القديمة لا زالت تغمر روحه. رفع بصره إلى جانبيه كانت تلك البنايات التي أحبها قد استحالت مع شرفاتها إلى أطلال وخرائب تنهض بينها أبنية حديثة متناثرة فتجعلها أكثر تنافرا وبشاعة. أجتذبه ما لم يكن يتوقعه، ثمة رجل وسط الشارع ينام واقفا مسندا رأسه على مقبض مكنسة، خطر له أنه تمثال، عجب ان يقيموا تمثالا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وهم اليوم يهدمون التماثيل بدعوى أنها شرك في عمل الله. اقترب منه، وراح يتأمله، كان رجلا بزي عمال التنظيف وقد أضحت رثة وسخة تبرز منها رقبة مقوسة بتجاعيد وغضون عليها خصلات شعر أشيب رمادي تنم عن تقدمه في السن. لكنه الآن ساكن كأنه دون أنفاس؛ ما جعله يظن أنه مات بنوبة قلبية، وقد راعته أوساخ المدينة التي لو كان بقوة كل جرافات الدنيا لما استطاع إزالتها! خطر له أن يقترب منه ويتسمع أنفاسه، أو يجس نبضه، وجد ذلك سيزعجه، فكر انه أنهك بعمله الثقيل والمرير فتوقف ليستريح قليلا وأخذته غفوة، فلماذا يحرمه منها وهو يحتاجها؟ طمأنه أنه أدار رأسه إلى الجهة الأخرى وغط في نومه على المكنسة، مضى سائرا، وكلما تقدم في الشارع ازداد دهشة وقلقا، رأى جمهرة كناسين كلهم يغطون بنوم عميق واقفين مسندين رؤوسهم على مقابض مكانسهم، يبتسمون كأنهم على أبواب جنة أو حديقة غناء، ثم فجأة وكأنما بفعل الرائحة العفنة المخدرة والغريبة المنبعثة من النفايات صار يرى أشياء غريبة مرعبة؛ كلاباً وقططاً كثيرة حولهم تضحك وتقهقه، تمرح وتتناسل، قططا تخرج من أرحام كلاب، وكلابا تخرج من أرحام قطط، غربانا سود وبيض تنقر عيون أطفال وعصافير وصور زعماء وقادة ووزراء ورجال دين تطل من تحت النفايات. وأشباحا كبارا وصغارا جائعة تأكل بقايا خبز وفاكهة وعظام مخلوطة بالأوساخ تزدردها بنهم وتلذذ، وسمع أغاني وأناشيد تخرج من تحت أنقاض وفضلات يحفها بكاء وعويل وصليل سيوف ونقر دفوف! والكنّاسون النائمون على مكانسهم يقفون ساكنين كأنصاب، تعثر بأحدهم فسقط، لكنه ظل نائما، أحس بمكنسته ترتطم بصدره وتستقر بيده؛ اعترته نوبة حماس ود لو يستطيع أن يزيل بها ولو تلا واحد من هذه السلاسل اللامتناهية من تلال النفايات، والأوساخ! ويطيح بهؤلاء الكناسين النائمين مبتسمين بين كل هذه القذارات ويسرحهم من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخدمة! تذكر انه الآن عجوز امتصت عمره السياسة والسجون وغرف التعذيب، وجحود ونكران هذا وذاك. فجأة اعترته نوبة نعاس ورغبة في النوم؛ كأن المكنسة تنفث مخدرا أو موجة نوم قوية، أوشك أن يستسلم لهذا النعاس الذي وجده لذيذا وينام هو أيضاً على المكنسة واقفا أيضا مثلهم، لكنه أفاق على زعيق رتل طويل من السيارات المصفحة قدر أنه لأحد المسئولين الكبار، أو قائدٍ لإحدى المليشيات والعصابات الكثيرة المسيطرة على مفاصل الدولة. يقترب منه ليشق طريقه ببراعة أفعى بين كل هذه الأكوام من النفايات والأنقاض، تساءل في نفسه إن كان من في هذه السيارات الفارهة المدرعة يرى شيئا خلال الزجاج المظلل والمضاد للرصاص. سيواصل الرتل سيره وعلى الأكثر سيتوقف عند بناية البنك المركزي الكائنة منتصف الشارع. أو يواصل طريقه غير بعيد إلى الثكنة العسكرية، وحيث ما اتجه الرتل تلال النفايات والأزبال على الجانبين، كان الظلام قد حل، هبط الليل دفعة واحدة. أسقط المكنسة من يده ولاذ كالهارب بأحد فروع الشارع عائدا إلى حجرته وراء الضفة الأخرى من النهر، شاعر بندم أنه استسلم لخطاه لتأتي به إلى هذا الشارع الذي أحبه واقتات قلبه على ذكرياته زمنا طويلا.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قصيدة تبحث عن قائلها

ثمة قصيدة معذبة محكومة بالأرق الأبدي، ذات يوم أمضها الشعور بالذنب، وتبكيت الضمير فانطلقت تبحث عن قائلها أو عن أبيها ومنجبها بتعبير اصح!

ولكن أية قصيدة هذه؟ قيل أنها القصيدة التي حولت قلوبا بشرية رقيقة إلى قنابل؛ قتلت بشراً كث يرين!

ألهبت دماء وجعلتها زيوتا لحرائق في الساحات والطرقات والبيوت، وفجرت براكين أحرقت المدن، وزلزلت الجبال! وجرت شبانا من أحضان أمهاتهم وحبيباتهم إلى المشانق والزنزانات والمنافي، وصنعت مآسي لناس، وأفراحا لآخرين لا يستحقونها! كيف لا تحس بوضعها هذا. وكيف لا تعاني وتتألم؟ من وضعها على الورق ومضى؟ أهي يتيمة؟ أهي لقيطة؟ ألها أب شرعي وقد تركها لسبب ما؟ أهي نسمة أتت من الغيب تحمل روح شيطان أو ملاك؟ ظلت تسأل عن أبيها، أما الأم فهي تعرف أنها ورقة بيضاء، لا ذنب لها، إذ دورها قليل نوعا ما!

لم تجهد نفسها في البحث، كثيرون أشاروا لها إلى أبيها، فهم قد رأوه محمولا على الأكتاف يطلقها فوق رؤوس الناس في مظاهرة كبيرة حاشدة غيرت حياة المدينة وقلبتها رأسا على عقب، وإلى الأسوأ طبعا!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وجدتـه فـي ملهـى فخـم كبيـر، علـى مائدتـه زجاجـات خمـر، وعلـب سـجائر، وأطعمـة كثيـرة منوعـة، تحيطـه الغانيـات، وهـو ثمل لا يكاد يعي ما حوله، لم تقترب منه، قالت لأتركه في لهوه، فهو غائب عن وعيه وقد لا يفهم منـي شيئا، ولا أفهم منـه شيئا، وقد يطردنـي، بهذا عرفت شيئا عن خلقه وطباعه بل ودخيلة ضميره، انسحبت وقد أمضـها شعور من الخيبة. أين ما جبلها عليه من ثورة وتمرد واقتحام وما هو عليه الآن من لهو ومجون وابتذال؟ تركتـه وقد صـارت أكثر عزمـا علـى مواجهتـه بحقيقتـه وعلـى الانـزواء بعيـدا كـي لا تسـبب للنـاس المزيـد مـن الأذى بإيحاءاتها الجنونية!

بعـد أيـام، وبصـعوبة شـديدة وصـلت، إليـه، كـان فـي مكـان حصـين، قصـر الحـاكم الأكبـر، تسـللت إليـه مـن ثقـوب مفـاتيح الأبواب الكبيرة، كان الشاعر جالسا مع الحاكم الأكبر ووزرائه تحيطهم نساء حسناوات وموائد شراب وأطعمة متراكمة. الحاكم الأكبر ذاته الذي حرض الشاعر عليه شبانا كثيرين فثاروا، ولم ينجحوا، فقتل كثيرا منهم وسجن وشرد الباقين. كان ينادمه، يروى لـه نكاتـا موزونـة مقفاة ليضحكه، والحاكم مع كل طرفة يسمعها منـه يلقـي عليـه رزمـة مـن نقـود خضـراء أو قطعـة مـن ذهب. لم تتمالك القصيدة نفسها، صرخت بالسؤال الذي أرقها، ألقتـه فـي وجهـه وثمـة شـعور غريـب يكتنفهـا، أنهـا تلقـي بوجهـه منـديلا ملطخـا بـدم بكارتهـا المنتهكـة، وقـد حملتـه سـنينا طـوال منتظرة من يقتص لها:

ـ لمـاذا أرسـلت الشـبان المسـاكين إلـى المشـانق والسـجون، وأتيت إلى هنا تسكر بدم عفتي؟

نظر إليها الشاعر غاضبا، لم يعرفها، صاح بها:

ـ من أنت؟

ـ ألـم تعرفنـي؟ قصـيدتك التـي قلـت أنـك اعتصـرتها مـن ذوب

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القلب، ولب الضمير، أكاذيبك وأوهامك التي ضللت بها الكث يرين!

بدا كأنه يتذكر فأشاح بوجهه ناظرا إلى الحاكم الأكبر كأنه يستنجد به عليها، ومن مكانه صاح الحاكم الأكبر منتفضا:

ـ من سمح لك بالدخول إلى هنا؟ وزعق بحراسه غاضبا متوعدا بهم:

ـ خذوها إلي المقصلة!

جروها من جدائلها، كانت مشرئبة متعالية، صرخت في وجوههم:

ـ تبا لكم جميعا، وا أسفاه، أبي والحاكم الأكبر من طينة واحدة، لا أريد أبا يخون ابنته، وأهله، ولا أريد حياة أغرر فيها بالناس الغافلين! خذوني إلى المقصلة!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أين هم الشهداء الآن؟

عاد خائبا من محل بيع الملابس، لم يقبل صاحبه رغم وساطة صديق مقرب له أن يشغله. كان الرجل المسن يريد الحصول على عمل بسيط يزيد به دخله، فراتبه التقاعدي الضئيل لا يكفي لسداد إيجار البيت وتكاليف أدويته وزوجته وطعامهما البسيط.

صاحب المحل وجده قد تجاوز السبعين وهيئته الحزينة أو الكئيبة ستطرد الزبائن حتما! سار كالتائه في أكثر من شارع. توقف عند بائع صحف، استرعى انتباهه عنوان عريض بالأحمر" أين هم الشهداء الآن؟ ". مقال آخر في صحيفة مجاورة كأنه يجيب " الشهداء في الجنة مع رضوان الله" كل الصحف تكتب اليوم عن الشهداء، فهذا اليوم في هذه البلاد هو احتفالي ب "يوم الشهيد". كان للرجل ثلاثة أولاد، لا وجود لهم الآن، فهم شهداء غائبون لا يعودون رغم انتظاراته الطويلة وأدعية أمهم التي لم تتوقف يوما، وثمة من يقول أنهم لا زالوا في مهمتهم الوطنية، فالشهيد يؤدي واجباته الشاقة والمؤلمة حتى من خلال صورته الصامتة على الجدار! أحد أبنائه كان سياسيا، سجن ومات تحت التعذيب. الآخر مات في حرب خائبة خاضتها البلاد قبل سنوات. الآخر قتل في مظاهرة صغيرة خرجت تطالب بالإصلاح، فواجهتها السلطة بزخات الرصاص. وهو اليوم يبحث عن عمل صغير دون جدوى! هز رأسه وقد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ارتجفت شفتاه من دمعة حرى، استرعى انتباهه عنوان عمود في جريدة أخرى، "لا للاستشهاد دون طائل!" تناول الجريدة بعفوية وأخذ يقرأ: لا.. للخضوع، لا للذل، نعم للثورة والتمرد والغضب والعنفوان، ولكن حذار من استسهال الموت، وبذل الأرواح دون روية وتدقيق، لا تسيروا خلف من يقودكم إلى الموت كخراف أضاحي العيد! ظل يحدق في الصفحة دون أن يواصل قراءة المقال الطويل لكنه نسى نفسه بذهوله، والجريدة في يده وقد ارتجت كأنها ضربت عندما انطلق صوت البائع ينتهره:

ـ هذا الكشك ليس مكتبة عامة، اتق الله يا رجل!

مد يده في جيبه، لكنه فكر أن ثمن الجريدة يمكن أن يوصله في سيارة النقل العام إلى بيته فقد بدأ يحس بالتعب. ألقى الجريدة بصمت ومضى! وهو في السيارة بين زحام الركاب أخذته إغفاءة، كانت اقرب للغيبوبة. رأى أولاده الثلاثة مجتمعين، كأنهم تصالحوا بعد أن اختلفوا طويلا في حياتهم يمينا ويسارا، قال أحدهم ناطقا باسمهم، جادا غير ممازح:

ـ ليتك اتفقت مع الوالدة على إنجابنا مرة أخرى؟ هذه المرة لن ننساكما أبدا!

هز رأسه ضاحكا حتى لقد سمع ضحكته الرجل الجالس بجانبه فتبسم. كان يهم أن يعدد له أفراحه وآماله لهذه الصفقة، حين تعرضت السيارة لهزة عنيفة إثر انعطافة حادة في الطريق، فتنبه، واستفاق من حلمه التعيس، ود لو يصل البيت سريعا وينام عله يراهم في منامه مرة أخرى، ويطول اللقاء!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حيث ما تقتنع الوردة!

منذ ساعات وهو يحاول أن يجعل الوردة تتفتح. حين قطفها كانت متفتحة، حمرتها المتدرجة رائعة، وشكلها أقرب لقلب بشري منفتح لكل شيء، لكنها الآن قد ضمت أوراقها ونكست رأسها، وغصنها قد ذبل والتوى وصار أشبه بحبل مقطوع!

كان عصر أمس مع صديقه يتجولان قريبا من بركة كبيرة محاذية للبحر تكونت من مياه الينابيع والأمطار، وقفا يتأملان الزهور الطافية عليها مع حلقات كثيرة من أوراقها الخضراء المدورة، قال الصديق:

ـ هذه ليست كلها أزهار اللوتس الجميلة، هناك بينها لو فتشت ستجد زهرة أجمل.

ظل يدور حول محيط البركة ويقلب بغصن كسره من شجرة قريبة بحثاً عن تلك الزهرة. وجد زهرة لا تختلف كثيراً عن زهرة اللوتس الحمراء، لكنه أصر على القول أنها زهرة أخرى معروفة بعنادها فهي لا تتفتح إلا هنا في هذا الماء العذب وهذا الفضاء النقي الجميل، رد هو كأنه يتحداه حول فتاة جميلة متعالية مؤكداً انه يستطيع أن يسقطها في شباكه قال:

ـ ستراها غداً متفتحة في إناء بلوري على مائدتي!

لم يترك للصديق فسحة أن يقول شيئا، قطعها من حرشها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ومائها بإصبعين غليظين ووضعها في كيس بلاستيكي!

واليوم هو في بيته يحاول أن يجبر الوردة على التفتح! ويجعلها تستعيد نفس شكلها الجميل عندما كانت على سطح البحيرة، وهي الآن بصمت مطبق مستمرة على تمردها وعنادها! مضى يمارس القوة معها، مقتنعا أن ذلك للتجارب فقط، دس بين أوراقها قصاصات ورق ناعمة، وضع بعض العيدان الصغيرة انفتحت الأوراق برهة ثم عادت لتلتصق ببعضها ذابلة مصرة على أن تبقى مضمومة حتى ماتت كالمنتحرة! راحت تتفسخ، وتتهتك أوراقها بين أصابعه، جاء صديقه، معلنا بلهجة ساخرة واثقة:

ـ جئت لأرى الوردة متفتحة على مائدتك!

رد بانكسار:

ـ حقا أنها حمقاء وعنيدة!

ـ ألم أقل لك إنها لا تتفتح إلا في بحيرتها!

استعاد هو وجومه القديم، كأنه تراجع عن أن يكون الأمر مجرد لعبة أو مزحة، بل معركة جادة:

ـ قل: مستنقعها!

ـ رغم إنها كانت في ماء نقي نظيف، لك أن تقول إنه مستنقعها الراكد الآسن، هذا رأيك، لا يهم، الوردة وما تقتنع!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ثياب ضيقة!

وصل السويد صيفا، كان الجو دافئاً بعض الشيء، لم يشعر أن الملابس التي جاء بها من العراق غير ملائمة له هنا، وجدها تضاعف سعادته بالحرية التي نالها أخيرا! ظل يرتديها شاعراً بتمازج دفئها ورائحتها مع نكهة الزهور والخضرة في المتنزهات والحدائق والطرقات. في الخريف حين بدأت الشمس تختفي لأيام عديدة، وندف الثلج تتساقط، والريح تهب باردة؛ أخذ جسده يقشعر ويرتجف، وملابسه تهفهف خفيفة مخلخلة كأنها قد استحالت هي أيضاً إلى أوراق من أشجار الخريف! ارتدى ملابسه الشتائية التي جلبها من العراق، وظل برد السويد يخترقها مع جلده وعظامه فيرتجف وينكمش، لكنه ظل متشبثاً بها لا يريد أن يتخلى عنها، ويشتري الثياب السميكة التي لا مناص لمن يعيش في هذه البلاد من ارتدائها في أيام الصقيع المظلمة الطويلة!

كان البرد يخترقه كالنصال، وأسنانه تطحن بعضها كأنها تقضم الثلج، قال له جاره العراقي:

ـ أنت لا تعرف أي مناخ رهيب هنا في السويد، كل برد شتاء العراق لا يساوي برد ساعة خريفية هنا، إلقْ ملابسك التي جئت بها في حاويات النفايات وهيا إلى السوق لتشتري الملابس الداخلية الثخينة والقمصلات الجلدية المحكمة الإغلاق كالدروع!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضحك منه:

ـ لا لن أتخلى عن ملابسي التي أتيت بها!

سكت برهة قال كأنه يهمس لنفسه:

ـ فيها كل ذكرياتي!

مضى يحدث جاره:

ـ دفء الذكريات قادر على تبديد الصقيع، وصد الرياح!

وجاره يضحك!

لم يكن الرجل بخيلاً ولا ممن يقتصد أو يدبر، على العكس كان معطاء وكريما، كل ما في الأمر إنه وجد أن كل قطعة من ثيابه التي جلبها معه تمثل ذكرى طيبة غالية في حياته: فهذا البلوز الصوفي كانت قد حاكته له أمه، ماتت في بغداد قبل سنوات، وهذا كل ما تبقى له منها، كيف لا يرتديه هنا؟ نفحة منها تكفي لتذيب كل صقيع الدنيا!

وهذه السترة الأنيقة، هي هدية من الحبيبة التي أجبرها أهلها على الزواج من رجل مسن بعد أن طال مكوثه في السجن، ما تزال حاضرة في قلبه ونار الحب تستطيع أن تذيب كل جليد القطب! وهذا القميص وربطة العنق هما هدية من صديق عزيز قتل في الحرب، كيف لا يرتديهما، وكيف لا يذيبان كل ثلوج الطرقات! من يفهم مبرراته في البقاء على ثيابه القديمة رغم البرد وارتجافه عكس ما يدعي من دفء؟ لكنه بدأ يشكو من أوجاع في رئتيه ومعدته، الطبيب، يلاحظ ملابسه و يمتعض منه:

ـ عليك أن ترتدي ملابس أخرى، ما لديك لا يكفي!

ويعود ليقنع نفسه إنه لن يجد الدفء إلا في ثيابه القديمة، صار يحتمي من البرد وراء جدران حجرته المدفأة منقطعاً عن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مدرسة تعليم اللغة السويدية، ثم أخذ يرقب التلفزيون ويلتهم الحلوى! مرة أخرى قال له الطبيب أنت تعاني من ارتفاع ضغط الدم، وصعود مقلق في نسبة السكر! وعليك أن ترتدي ثيابا مناسبة، وتخرج للمشي الطويل، أنت تعاني من كآبة تدفعك لالتهام الحلوى!

سمن كثيرا، صارت ملابس الذكريات تضيق بجسمه وقد ترهل. عندما أصيب بأول نوبة قلبية قال له الطبيب:

ـ ألم أقل لك أن ملابسك، أضحت تضغط على قلبك وشرايينك وتسرب إليهما البرد؟

ظل يعاند مقنعا نفسه:

ـ الأطباء لا يعرفون أي دفء أريد!

صار يبدو في الستين رغم إنه لم يتجاوز الأربعين. وكان جسمه يسمن ويتضخم وملابسه تضيق وتضيق، وهو يصر على أنها تمنحه دفء الذكريات. رغم أنها في معظمها كانت تبدو حزينة وتعيسة! أحدهم حاججه: "وماذا في ذكريات السجون وهجر الأحباب وموت الأهل والحروب السيئة من دفء وخير؟" لكنه مضى متشبثا بها والشتاء هنا ط ويل ط ويل. وجاء الرد من أعماق جسمه. نزيف دماغي مفاجئ، لم يستطع ممرضو سيارة الإسعاف خلع ثيابه عنه، إلا بالمقصات، كأنهم يقطعون قيوداً شدها حوله جبابرة جاءوا من مغارات متوحشة، كان فاقد الوعي تماما، لكن طبيبه الذي يعرفه ويتعاطف معه قال: إنه لم يفقد الأمل في إفاقته!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الصديقان!

هذا المساء وبعد أكثر من خمسين عاما على فراقهما. التقى الصديقان، كانا قد تخرجا من كلية الحقوق في جامعة بغداد، أقاما حينها حفلا وداعيا بسيطا ممتعاً ضم أصدقاء لهما في بار على دجلة، ثم كأن عاصفة مرت بينهما فشتتهما مع أوراق الشجر وأعقاب السجائر، ورائحة السمك والكحول، مضى كل منهما إلى سبيله! واليوم يلتقيان في بلاد بعيدة موحشة باردة قريبا من القطب! وفي مكان يطل على نهر متجمد أطلق عليه اللاجئون العراقيون "حانة الأحزان" رغم إن اسمه بلغة أهل البلاد "بار ارقص حتى الفجر!". لم يتعرف أحدهما على الآخر إلا بعد ذهول وشرود. كانا قد تغيرا إلى حد أن كل منهما كاد يضحى شخصا آخر، امتلأ وجهاهما تجاعيد وشيبا وانكسارا، لكن بقايا وسامتهما، وقوامهما الممشوق مازالت تمنحهما جاذبية ومهابة آسرة. وكلاهما بقلبه يعرف الآخر، ويحس به بعمق! سأله:

ـ طمّني، كيف هي سعاد؟

سعاد هي زوجة صديقه، كانت زميلتهما في كلية الحقوق. قدحت عينا الصديق كأنما تطاير منهما شرر، وبانت فيهما حمرة دموية غاضبة:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ـ لا تسألني عنها؟ هذه الخائنة الغادرة!

ظل صديقه يحدق به صامتا مستفهما بملامحه وقد قطبت واكفهرت، وحين طال سكوت الصديق مستغرقا في تجرع كأس الفودكا، وملأه ثانية، وإشعال سيجارة أخرى:

ـ معقولة؟ سعاد الجميلة الطيبة!

ـ نعم سعاد الطيبة الجميلة المثقفة، اكتشفت أخيرا، أنها لخمسين عاما مضت.

كانت تخونني، وأنا غافل أظنها قديسة أعبدها!

ظل الصديق فاغرا فمه، يحتسي كأسه الطافحة بجرعات كبيرة كأنه يستعجل غيبوبته:

ـ ماذا يكون شعورك حين تكتشف أنك بعد أن منحت زوجتك كل حب ووفاء؛ أنها تخونك؟ ومع من؟ مع عدوك! رجل تافه رقيع ظل يلاحقني حتى بعد أن تركت البلاد مظهرا لنا الود بينما كان يدس السم والغدر والخيانة!

صمت برهة كأنه يحتسي دموعه:

ـ ربما عرفت إنني تحاشيت السياسة حفاظا على عائلتي وبيتي، وقد وفقت لبناء دار كبير جميل، وما كنت لأخرج من البلاد لولا الحرب الطائفية اللعينة!

ظل الصديق القديم مصغيا مصعوقا غير مصدق، محاولا أن يعزو كلام صديقه إلى إسرافه في الشرب، لكنه وكما يعرفه، ليس من النوع الذي تلعب الخمر برأسه، وإنه صريح ومستقيم في حياته، ويخلص الود والعهد! أما سعاد فهو كما يذكر عنها؛ أنها كانت جميلة فاتنة، حاول كثيرون الفوز بها، وانجرت لعلاقات عابرة، لكنها صارت من حظ صديقه. فعقدا خطوبتهما قبل تخرجهما وسمع أنهما تزوجا بعد أشهر. لم تكن لعوبا وإن كان لمس منها غموضاً وعتمة في شخصيتها وسلوكها، وإنها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تصل إلى غايتها بنعومة ورقة تذكره بنعومة وهدوء الأفعى، وقد راوده توجس منها لكنه لم يشأ أن يحدث بها صديقه الذي كان هائما متعلقا بها حد الجنون ولا يكف عن ملاحقتها! تلك مشاعر وذكريات قديمة كتمها في نفسه زمنا طويلا، لماذا تطفو الآن؟ تمنى أن يكون كلام صديقه مجرد وهم وظنون، أو مزحة ثقيلة، مضى الصديق يفتح له قلبه كعهده أيام شبابهما:

ـ ماذا يكون شعورك أن تجد فجأة أن أبناءك الذين أنفقت العمر على تربيتهم وتنشئتهم، أنهم ليسوا من صلبك؟ أو في الأقل في شك من أبوتك لهم، وربما أبناء عدوك!

وجد نفسه يقول كأنه يسلم بالأمر:

ـ الفحوصات الآن تستطيع أن تحسم ذلك!

رمقه بنظرة من انخسفت به الأرض وراح يهوي من حالق:

ـ ومن أين أأتي بالشجاعة لأذهب للفحص؟ أو أجرهم معي لشكوك وفحوصات وتلطيخ سمعة؟ مجرد تفكيري بذلك يجعلني افقد قواي وعقلي.

أنظر إلى أين أوصلتني هذه المرأة التعيسة!

ـ ولكن هل تأكدت من ذلك؟ هل أنت على يقين مما تقول؟ هذا أمر فظيع، يا صديقي أرجوك، لا تتسرع!

التهم كأسه، ودق على المائدة يطلب زجاجة أخرى.

ـ قضيت عاما كاملا وأنا أبحث وأدقق في تفاصيل هذه المسألة الرهيبة، تعرف إنني حقوقي، لا أحكم على الناس دون أدلة وبراهين!

خيم عليهما صمت حاد متوتر، راحا يحتسيان شرابهما ويدخنان، حاولا معا أن ينتقلا إلى أحاديث أخرى، وجو آخر، لكنهما ظلا يحومان حول نفسيهما كنسرين قديمين لم يجدا غير

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أن يأكلا نفسيهما على منحدرات الجبال:،

كان يعرف أن هذا الصديق لم يتزوج، نذر نفسه لقضية سياسية معروفة، واستغرق بالعمل السياسي والحزبي، غائبا عن أهله وصحبه. ما أن يخرج من سجن أو معتقل حتى يدخل آخر، قارب الموت مرات عديدة، سمع مرة أنهم أعدموه، وعندما انقطعت أخباره عنه راح يتصوره وقد رحل عن هذه الدنيا؛ متفكرا إن كان له قبر، أم أنهم ذوبوا جسده في الحوامض كما كان يسمع عن كثيرين ممن قتلوا أو ماتوا تحت التعذيب في سجونهم، لكن أخباره راحت تترى إليه أنه استطاع الخروج من البلاد، واستقر في السويد، فسعى إليه ليلتقيا على كومة من أخبار خاتمة العمر، وهو الآن في لهفة لأن يعرف ماذا حل بصديقه، ولا مجال لمقدمات ومداخل كلام:

ـ وأنت قل لي ماذا حل بك؟ جاءه الآن صوته واهنا، حزينا متقطعا:

ـ أما أنا يا صديقي فأن الفكرة التي آمنت بها، و أخلصت لها خمسين عاما وتعذبت وشقيت وضحيت من أجلها بكل شيء، هي التي كانت تخونني، ومع أعدائي أيضا!

ظل يحدق به غير مصدق:

ـ ما هذا؟

ـ أجل، وأنت تشك في أبوتك لأبنائك، وتحس بالذنب نحوهما، أما أنا فقد صرت اشك بنفسي، وبكل ما فعلته على الأرض بهذه الفكرة الخاطئة، وبكل من أقنعتهم باعتناقها، وأحس بالذنب إنني ضللتهم وخدعتهم وجرعتهم فكرة مسمومة. تصور أن تقضي معظم عمرك تدعو لفكرة وتنشرها ثم تكتشف، فسادها وخطأها؛ فيكون عليك أن تقضي بقية العمر تعمل على إقناع الناس بفسادها، وبطلانها، هل يكفي أن تكون أضحوكة بينهم؟ هل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يكفي أن تعتذر لهم بعد أن ضللتهم ولا تستطيع انتشالهم؟ كم تحتاج من عمر وجهد، هيهات،.. هيهات!

ترقرقت عيناه بالدمع؛ بينما كان الصديق الآخر تقدح عيناه غضبا على سعاد،

ـ يبدوا أننا جيل المخدوعين!

ـ لا يا صديقي، لم يخدعنا أحد. أنت تزوجت سعاد عن حب وقناعة، وأنا اعتنقت الفكرة عن حب وقناعة، ودعوت لها، وناضلت من أجلها حتى وصلت حبل المشنقة. ولا أدري كيف نجوت، ربما تستطيع القول أننا جيل المتسرعين الطائشين!

ـ لكنني قضيت فترة حب قبل الزواج!

ـ يبدو إن ذلك لم يكن كافيا، الأمر نسبي طبعا، أنا أيضا قضيت فترة أقرأ وأقلب الفكرة، لكن ذلك لم يكن كافيا أيضا! ومع تسرعنا وطيشنا لم نكن بمنجى من التضليل والخديعة، أنا وإياك تؤمان في التهور!

ـ لكننا لم نقصر في شيء.

ـ كيف لم نقصر؟ ولم نكن جناة؟ لقد بذلنا الكثير الكثير من العطاء والآلام ولكن على طريق غير صحيح!

سكت برهة، قال:

ـ ولكن، هل تركت لنا الأحداث المجنونة فرصة لنتوثق من خطانا؟

راحا ينظر أحدهما للآخر بأسى، ثم يشيحان النظر عن بعضهما رثاء أو خجلا، أو تحاشيا لمزيد من الألم، ربما فكرا أي منهما مأساته أكبر، وأشد إيلاما، ربما فكرا أن مأساتهما واحدة، بل ربما فكر الصديق الذي خانته زوجته؛ أن مأساة صديقه الذي خانته الفكرة أكبر واشد أذى فهي ستؤذي أو ستدمر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الكثيرين أو تتسبب في خراب بلاد بأكملها، ربما، ربما فكر الآخر أن فجيعة صديقه بزوجته وأبنائه هي الأفظع؛ فهي تعني آلام أشخاص معروفين بسطاء غافلين!

ملأ الصديق له الكأس وأشعل سيجارته، وقال:

ـ أتمنى أن اسمع الآن أغنية عراقية قديمة. حزينة!

ـ وهل توجد أغنية عراقية غير حزينة؟

كانت الحانة تبث موسيقى مرحة هادئة، وهما في جناح المدخنين، النافذة مفتوحة تقريبا على النهر المتجمد! اقترح عليه أن ينتقلا إلى قاعة الرقص داخل الحانة، وجدا فتيات وشبانا يرقصون، وآخرين يحتسون كؤوس البيرة ويلغطون. تقدمت منهما فتاتان جميلتان ثملتان ضاحكتان وطلبتاهما للرقص، نظر أحدهما في وجه الآخر ضاحكا قال أحدهما :

ـ بعض الفتيات يحببن الرقص مع المسنين عطفا عليهم أو تقربا من مغفلين!

رد الآخر:

ـ كأنهن يحتضن تحفا أثرية!

ومضيا معهما إلى الحلبة، رقصا فأنهكا بسرعة. عندما خرجا من الحانة كان الوقت فجرا، لكن الظلام يغمر كل شيء، سارا وبوحي من شعور غامض باتجاه النهر المتجمد. قال أحدهما:

ـ ما رأيك أن نسبح هنا؟ هم بخلع ثيابه؛ كأنه يريد أن ينتحر!ـ لكن النهر متجمد، أنسيت؟

منعه، في تلك اللحظة، أدرك أن صاحبه متألم كثيراً، كثيراً، جداً، وما فعلته به زوجته هو جرح غائر مميت، ما جعله يسأل نفسه، هل إن خيانة المرأة أقسى من خيانة الفكرة؟ أم أن الذين تخونهم الفكرة هم أقدر على احتمال الجراح؟ عبرا النهر مشيا،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يتعثران أحيانا بكتل الثلج، كانت خطواتهما المترنحة تتجه نحو الغابة، ظلا يسيران داخلها على غير هدى، وابتلعهما ظلام الفجر فهنا الشمس لا تشرق عادة لأيام وأيام!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الطبيب وقاضي القضاة!

حدث هذا في بغداد وفي زمن بعيد، وبالتحديد في يوم شتائي من عام 1249 كان قاضي القضاة والمفتي الأكبر قد ألمت به وعكة قاسية ألزمته الفراش فأرسل يستدعي طبيبا عرف بدقة تشخيصه، ونجاعة علاجه!

بدانة القاضي المفرطة، وجسده الأشقر الذي لم تلوحه الشمس، وأعراض أخرى؛ جعلت الطبيب يخمن أن مريضه يعاني من السكري. في تلك الأيام كان الطبيب يحمل بأصبعه شيئا من بول المريض إلى لسانه ليتذوقه، ويعرف إن كان يعاني من السكري!

توثق الطبيب من صحة تشخيصه، نصحه بحمية قاسية، استمع قاضي القضاة له على مضض وحنق فهو لا يستطيع منع نفسه عن الأطباق الكبيرة من الخراف المشوية والحلوى والمكسرات وعصائر العنب. راوده خاطر خبيث كعادته، إن كل من معه في دار القضاء مصابون بهذا الداء الوبيل، بل تمنى ذلك، فهم ينافسونه على منصبه في دار الحكومة، وفي الولائم على التهام لحوم الضأن والدجاج والسمك المشوية والمتبلة بعناية خاصة والحلوى وعصائر الفاكهة، وأكثرهم مثله يشربون الخمر سرا ويسهرون طويلا في مجالس اللهو والمجون، ويتهادون مثله الجواري والغلمان والجواهر سرا وعلنا مع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأغنياء ومن علية القوم والعامة. ويبزونه بدانة وترهلا!

قال للطبيب:

ـ أريدك تأتينا إلى دار القضاء لتفحص أعضاء مجلس القضاء وتعالجهم.

فكر الطبيب أن حمل قطرات من بول هؤلاء القضاة إلى فمه لا بد أن تكون له عواقب وخيمة على صحته! كان نصرانيا، خطر له فجأة أن يسأل قاضي القضاة:

ـ لو أصبت بداء يودي بحياتي بسبب ذلك؛ هل أعد شهيدا، وأدخل الجنة؟ هز قاض القضاة رأسه بإصرار وجزم:

ــ لا، لا يمكنك أن تكون شهيدا وتدخل الجنة إذا لم تؤد الشهادتين!

ـ ولكنني يا مولاي القاضي بعملي هذا أضحي بحياتي من أجل أهل الشهادتين!

ـ لا! عليك أن تؤدي الشهادتين مخلصا وبنية الإسلام.

أعطى الطبيب لقاضي القضاة جرعته من عصارة الحنظل، وعندما امتعض القاضي من مرارتها الشديدة قال له":منذ الآن لا فاكهة لديك غير ثمرة الحنظل ".

أكد قاضي القضاة عليه بلهجة حازمة صارمة أن يحضر إلى دار القضاء في اليوم التالي. هز الطبيب رأسه صامتا وخرج.!ما أن وصل بيته حتى طلب من والدته التي ليس له غيرها في الدنيا أن تعد نفسها لسفر طويل. لم تسأله شيئا، فهي منذ صغره تثق به وبقراراته التي تأتي ناجعة كوصفاته الطبية. لم بعضا من كتبه وأشيائه الثمينة، أسرج فرسه، وأردف أمه وراءه وخرج من المدينة تحت سدل الظلام! بعضهم قال أنهما تاها في الصحراء وأكلتهما الضواري والطيور الجارحة. البعض الآخر (وهي الرواية الأصح) قال إنهما وصلا بلاد الروم، وصار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الرجل طبيبا لأحد أمرائهم. وهناك بعد عشرة أعوام تقريبا، توصل خلالها إلى أداة يفحص بها بول مرضى السكري بدلا من لسانه الذي تهرأ من بول المرضى، جاءه نبأ سقوط بغداد بيد هولاكو!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أقراص الأحلام!

ها هو يعود مرة أخرى إلى بلدة سهريانا الصغيرة في جنوب أسبانيا. اعتاد أن يزور مدن الأندلس بين فترة وأخرى! كانت القصور والمساجد والشواهد الجميلة التي تركها أسلافه العرب بقدر ما تثير في نفسه من مشاعر فخر واعتزاز تثير في نفسه مشاعر متناقضة كثيرة أيضا؛ تدخله في جدل ومشادات مع بعض السائحين العرب أو الأجانب، فقرر أن يقتصر في جولاته على مناطق داخلية في المدن أو يتجول بين كهوف قديمة يسكنها الغجر منها خرجت إلى المسارح الشهيرة راقصات فلامنكو فاتنات سلبن عقول آلاف السائحين في اسبانيا فكانوا يكررون زياراتهم إليهن قادمين من أقاصي الدنيا! في أخرى يبيعون التحف الخشبية والمعدنية البدائية والكؤوس والسكاكين والمناديل المطرزة برسوم ورود ونساء، وأدوية عشبية ورقى يقولون أنها تقوي الباه، أو تبعد الموت عن الإنسان إلى ما بعد المائة! في زيارته السابقة وقف عند غجري فقير جالس عند فتحة كهفه ينادي لبيع ما كان يسميها " أقراص الأحلام"، ثمة صديق عربي يسكن المدينة منذ عقود، يترجم له من الأسبانية ما يقوله الرجل:

ـ ثلث أعمارنا نقضيه بالنوم، وعلينا أن نختار من يكون معنا في هذه السنين الطويلة!

هذه أقراص: للحلم بالحبيبة القديمة التي حال الأهل عادة أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الدهر بيننا وبينها، وهذه حبوب للحلم بالأم الطيبة، التي نسيناها في زحمة بحثنا عن المال والجنس أو السلطة، وتلك أقراص تجعلنا نرى في منامنا أصدقائنا المحبوبين وأقاربنا الذين طواهم الموت أو البعاد، وأخرى لرؤية معلمينا الأثيرين، وحتى لرؤية فراش مدرستنا الطيب وهو يأتي لنا بشهادة نجاحنا فنعطيه ما في جيوبنا. وهذه أقراص تمنع رجال سلطة وأحزاب معارضة من دس أنفسهم تحت جلودنا، وأخرى تمنع من يريدون استغلالنا وخداعنا من التسلل إلى حجرات نومنا! وثمة أقراص تمنع المذيعين والمذيعات حتى لو كن جميلات من اقتحام نعاسنا فلا نسمع الأنباء السيئة!

كان يعرف حنكة وبراعة الغجر، وكان يخدع مرارا ببضاعتهم، لكنه يستقبلها ضاحكا ويعاود الشراء منهم، اشترى بعضا من هذه الأقراص، وكانت رخيصة. تناولها بيد مرتعشة متهيبة من يد الرجل الفقير.

حالما عاد إلى منفاه البارد المظلم في السويد راح يجربها، وحيث إنه وحيد مهجور منذ أمد بعيد، تناول أولاً القرص الذي يأتي بالحبيبة القديمة، وفعلا جاءته لا بجمالها المتواضع القديم، بل بجمال كل ما رأى من النساء بعدها، مرتدية ثوب العرس أيضا، ما جعله ينهض من فراشه مبللاً بدموعه، متلمساً بقية ثيابه خشية أن تكون قد تبللت بسوائل أخرى! في الليلة التالية تناول قرصا آخر فرأى أمه التي ماتت وهو في الغربة وتحسر كثيرا أنه لم يودعها.فأعتذر لها وبكى بين يديها طويلا، في أخرى أتى له فراش المدرسة حاملاً شهادة نجاحه قائلا (هذه شهادة نجاحك في امتحان المنفى كثير الدروس) فناوله مبلغا جيدا! لكن المصيبة أنه مهما تناول من أقراص لم تختف كوابيسه التي يرى فيها رجال السلطة والمعارضة والمذيعين والمذيعات في بلاده، وكل أخبارهم المدمرة، ومع ذلك سحر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بلقائه الأحبة، وهذا الفيض من النور والجمال الذي غمر مخدعه البارد الكئيب، من هذه الأقراص الوردية ذات الطعم والرائحة الغريبتين، واليوم هو في سهريانا من جديد. تقدم من كهف الغجري واجف القلب، وجده وقد أسدلت على فوهته قماشة داكنة رثة، سأل عنه، انبرى له جاره قائلاً بصوت غليظ لا يخلو من التشفي:

ـ لقد سجنوه، كان محتالاً يصنع أدوية بشعة من عظام الموتى.

اهتز، وانتابه دوار، وشعر بالغثيان، لكنه تمالك نفسه، وتنبه لعجوز غجرية تومئ له من كهف مجاور، قالت بصوت هامس:

ـ لا تصدق هذا الرجل إنه يكرهه، هو لم يكن يصنع أدويته من عظام الموتى، إنما من قشور بيض القطا! وأخرجت بيضة قطا صغيرة فارغة، قالت:

ـ من بيض كهذا!

راح يدقق بكتابة عليها، كانت بالعربية وراح يقرأها، بيت من الشعر القديم الشهير:

أسرب القطا هل من معير جناحه؟ لعلي إلى من قد هويت أطير!

سألها:

ـ وهل لديك منها شيء أشتريه؟

هزت رأسها آسفة، ما زاده ثقة بكلامها عن أقراص الأحلام، اقترب منها مع الم ترجم وهمس متوسلا أن تأتيه بأية كمية لديها منها، فوعدته خيرا!

هدأت نفسه، واطمأن فأقراص الأحلام ليست من عظام الموتى كما ادعى الرجل الحقود، بل من بيض طائر أحبه منذ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صباه، ومن شعر شاعر كان مجنونا مثله، كيف لا تأتي الأحلام والذكريات؟ لعل الغجرية تجد الكثير منها، سيشتري كل ما تأتي به!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عطر اسمه ضرطة السلطان!

يروى والعهدة على من روى، أن أحد السلاطين الحاكمين بأمر الله في عهود سحيقة كان يضاجع إحدى محظياته فضرط، فما كان منه إلا أن قادها إلى حديقة القصر وأمر سيافه بقطع رأسها! ومع ذلك عرف الناس أن السلطان قد ضرط! كيف عرفوا؟ هل هي كانت قد همست للسياف بآخر كلماتها؟ هل وصل أعداؤه أو منافسوه إلى مخدع نومه؟ أم أن الناس شموا الرائحة من بعيد، وميزوا ضرطة السلطان عن ضراط الرعية؟ وقد عُرفوا بكثرة ضراطهم رغم جوعهم الدائم! كثيرون ليس لديهم سوى "الله أعلم"! لكن أحد مصانع العطور الشهيرة في باريس بعث الحكاية من جديد في هذا العصر حين نشر على قارورة عطر باهظة الثمن جدا حكاية تقول أن ثمة زهرة نبتت من دم المحظية الحسناء تتكلم كالبشر، سميت بالزهرة الثرثارة، هي التي كشفت السر! ذكر أن في زيتها النادر أطيب عطر في العالم! لكن الغريب إنهم أسموا هذا العطر "ضرطة السلطان"، ويبدو إنه عطر رجالي حيث قيل أن الكثير من الملوك والأمراء والرؤساء، وقادة أحزاب وجماعات، ثورية وغير ثورية، دينية وغير دينية في شتى أنحاء العالم، يقفون اليوم في الدور ومنذ سنوات في انتظار الحصول عليه وبكميات تناس ب عدد حفلاتهم ومناسباتهم الشهيرة، لا نعرف مدى صحة ما قيل قديما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وما يقال اليوم، لا يسعنا سوى القول مع القائلين مرة أخرى، الله أعلم!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

انظر يميناً، انظر يساراً!

وجد أن صديقه كان محقاً حين قال وهو يدعوه لزيارته في لندن:

ـ ستنزل في شقة جميلة تجاورها حديقة عامة كبيرة! ستستعيد أجواء البساتين التي فقدناها مذ غادرنا بلادنا!

كانت الحديقة مفتوحة كضفتي نهر ممرعة بالشجر والزهر، ومصاطب يتناوب عليها عشاق وعجائز وطلاب يحملون كتبهم، لكن الأجمل أن الحجرة التي وضع له فيها صديقه سريراً جميلاً ومنضدة عليها كومبيوتر نقال كان شباكها يطل من الطابق الثاني على شارع كثير الحركة، كان يستطيع أن يرى بوضوح ما يحدث فيه. ثمة فسحة عبور المشاة مخططة، وعبارة في طرفها تحت الرصيف تماما:"انظر يسارا "، تقابلها على الطرف الآخر وتحت الرصيف أيضا:" انظر يمينا " قال في نفسه؛ هكذا كل شوارع الدنيا والحياة أيضا، يا للإنجليز كم هم نظاميون، مملون، يؤكدون على البديهيات!

راح بين فينة وأخرى ينظر من النافذة العريضة، فهذا معوق تقوده أو تدفع عربته فتاة جميلة، (عرف من صديقه أن في جوارهم نزل للعجزة والمعوقين، تعمل فيه فتيات جميلات)، وهذا رجل أعمى يتلمس طريقه بعصا الكترونية، وهذان شاب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وفتاة يعبران الشارع، الشاب العاشق لا يتردد عن قطف قبلة غير قصيرة من رفيقته؛ بينما سيارة متأنية تنتظر عبورهما أو انتهاء القبلة، رجل يحمل قفص فيه طير ويعبر الشارع بانضباط واضح، تلته فتاة بتوافق عجيب تحمل قفصاً فيه قطة، امرأة تدفع ع ربة طفلين جميلين بوجه مستبشر، وجسد طليق حتى إنه استطاع من وقفته فوق الشارع أن يرى مفرق ثدييها الأشقرين العامرين، وتساءل في نفسه هل استثمرتهما في إرضاع هذين الطفلين الجميلين، أم حافظت على رشاقتهما وأرضعت طفليها من زجاجتين باردتين؟ وجد الشارع أروع من أي مسرح في العالم. لام نفسه إنه تردد في قبول دعوة صديقه في القدوم إلى لندن، عندما يخرج صديقه للعمل صباحاً ينصرف هو لتأمل الشارع لاهيا عن كتبه والكومبيوتر. حتى في الليل اعتذر لصديقه عن الخروج لدعواته إلى بار أو مطعم، مفضلا الجلوس معه في الشقة واستعادة ذكرياتهما القديمة، وعند الفراغ يرقب الشارع! وجد أن هؤلاء العابرين قد أضحوا أصدقاءه وأحبته دون أن يدروا، وكم وجد في اللحظة القصيرة التي يعبرون بها الشارع غير العريض من تجليات وخصائص حياتهم، وأن ما يراه هنا يغنيه عن الخروج إلي شوارع وميدان هذه المدينة الكبيرة الصاخبة الضاجة ليلا ونهار، حتى ما كان يراه في عتمة الليل وأنواره وجده جميلا موحيا ويدعو للشجن وكأنه يقدم له لندن كلها عبر نافذته!

لم يشعر بأي ذنب لمراقبة المارة، قال في نفسه هذا ليس تلصصاً ولا اختلاس نظر، فالناس يسيرون في الشوارع ويعرضون أنفسهم، وحياتهم كما هي تحت الشمس والظلام والضباب! تآلف مع الشارع وصار يمتثل لتعليمات الإنجليز:

انظر يمينا، أنظر يسارا!

في يوم مغادرته وبعد أن انتهى من ترتيب حقيبته الصغيرة،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رأى عبر نافذته، سيارة تمر ببطء وهدوء، ما أن صارت السيارة السوداء الطويلة تحت نافته حتى رأى من زجاجها الجانبي نعشا خشبيا لامعا محاطا بباقات كبيرة من الزهور، توقع أن الميت أو الميتة من الأغنياء الكبار، فقد كانت السيارات التي تتبعه كثيرة وفخمة، والنساء والرجال الذين يستقلونها رغم أنهم بملابس الحداد السوداء لكنهم لم يغفلوا إظهار أناقتهم ونعمهم ومكانتهم، لم ينس أن النعش الذي يمضى إلى حفرته كان فخماً والورود التي رصت حوله كانت كثيرة ويانعة وخيل له أن رائحتها أخذت تملأ قلبه بحزن لم يكن يتوقعه! لكنه وهو يحاول التهرب من هذه اللحظة الأخيرة الحزينة التي داهمته من هذا الشباك راح يتوسل النظر مرة يميناً ومرة يساراً رأى أن آخر سيارة في هذا الموكب كانت تحمل كلباً أبيض، قدر إنه ربما هو كلب الميت وقد جاء يودعه إلى مثواه الأخير، خيل إليه أن وجه الكلب كان حزينا، وإنه رأى دموعاً تترقق في مآقيه، ظلت نظراته تتلاحق يمين ا، ويسارا، حتى غادر لندن، بين قلقه ودهشته وجد نفسه وهو في الطائرة بجانب النافذة ورغم أن الأرض قد اختفت تماما وحلت محلها سحب داكنة، ظل يتلفت يمينا ويسارا!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النساء يسرن مسرعات

استرعى انتباهه أن النساء في هذه المدينة الأوربية يسرن مسرعات، أو هكذا خيل أليه، كان يرى الواحدة منهن تسير مستعجلة تدك الأرض كفرس مقدامة، يلوح فخذاها من خلف الثوب السميك أو الشفاف ثائرين يلاحقان عبثاً الصدر النافر، لتمضى بخطى واسعة كأنها ضابطة تقتحم معركة ضمنت فيها النصر منذ البداية!

صار يسأل نفسه لماذا النسوة يسرن مسرعات؟ هل كلهن ذاهبات إلى أعمال يديرها مدراء عابسون صارمون سيطردوهن لو تأخرن دقيقة عن التوقيع في سجلات العمل؟ هل كلهن ذاهبات لمواعيد غرام مع عشاق نزقين سيتخلون عن انتظارهن إذا تأخرن دقيقة واحدة؟ هل كلهن مصابات بسلس البول ويسعين الآن لأقرب مرحاض عام؟ هل كلهن رأين حلما واحداً بشعاً ويهربن أمامه خشية أن يتحقق تحت الشمس أيضا؟ هل كلهن يعملن في محلات لبيع الزهور ويردن الوصول بالوقت الضروري ليتعهدن الورود كي لا تذبل قبل أن يشتريها العشاق؟ هل كلهن ممرضات يركضن باتجاه مرضى بأمس الحاجة لهن؟ نادلات في حانات فيها ظامئون للخمرة ينتظرونهن ساقيات حنونات متسامحات؟ أم كلهن موظفات في شبكة المساعدة الاجتماعية ليمنحن المعونة له ولغيره من المشردين؟ أم ثمة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عصا مجهولة غير مرئية تسوقهن لأهداف غامضة؟ ولكن الرجال يسيرون مسرعين أيضا، لا! النساء يسرن أسرع، ثمة خوف غريزي يفوح مع عطورهن الحادة اللجوجة، ويملأ الشوارع ويلسع صدره؟ أسئلة كثيرة، راحت تتعب مخه وأقنع نفسه أنها ليست سخيفة أو غير ضرورية! تمنى لو يمتلك الشجاعة ويسألهن واحدة بعد الأخرى: لماذا أنتن مسرعات؟ تمهلن! الدنيا زائلة أخيرا، كلنا سنرحل. جلس على مسطبة كونكريتية وراح يستوقفهن داخل رأسه: عفوا لماذا أنت مسرعة؟ هل حدث حريق خلفك؟ وترمقه الفتاة الجميلة بارتياب، كان في وجهه من الشحوب والهزال، وفي هيئته من الرثاثة ما يكفي للارتياب به. ظنته كحولياً متسولا:

ـ آسفة لا أحمل نقودا، أنا أدفع بالفيزا كارد، هل لديك آلة تحويل لأدفع لك؟ ولم تنتظر وقع سخريتها على وجهه، سارت بخطى أسرع هاربة منه، تقدم من أخرى:

ـ ماذا هناك يا سيدتي هل قامت الحرب الكونية المنتظرة؟ ضحكت:

ـ لا، أبداً أنا لا علاقة لي بالحروب، كل ما في الأمر إنني عاملة مخبز وعلي أن أعجل لكي استلم من زميلي الفرن قبل أن يحترق الخبز في داخله، هل تطيق أكل الخبز المحروق؟ انحنى لها شاكراً إذ تبسطت معه بهذا القدر، وابتعد عن خطاها التي وجدها مقدسة حقا.

تحول رأسه إلى شارع مزدحم يستوقف فيه النساء المسرعات، وجدهن يعملن في رياض أطفال، وسائقات باصات، وبائعات عطور, وأحذية ومنظفات قطارات ومهندسات ميكانيك. استرعى انتباهه وجه فتاة حسناء تسير بخطى مسرعة أيضا، تقدم منها داخل رأسه:

ـ ماذا هناك يا سيدتي؟ لم أنت مسرعة؟ كل شئون الدنيا لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تقتضي العجلة، لا تنسي أن الأرض تدور ببطء!

قالت وهي ما تزل تحث الخطى:

ـ ولكنها تقرض أعمارنا بسرعة؟ أمي تحتضر في المستشفى، وعلى أن أكون بجانبها، أريد أن أحفظ في صدري أنفاسها الأخيرة!

مضت بخطى أسرع، سمعها تتنهد، وتقول بصوت يختلج بالبكاء:

ـ أمي، كيف ترحلين وتتركيني وحيدة في هذه الدنيا؟

ظل واقفا، أحس بآهتها وكلماتها تخترق قلبه كنحل عاد من حقل زهر. كل هذا الجمال، كل هذا اللطف، كل هذه الخطى الواثقة، وتعيش وحيدة؟ ظل متحيراً مرتبكاً، ناسياً أن رأسه قد ابتلع الشارع، وقبل أن تغيب عن نظره، سار خلفها مسرعاً دون أن يفكر ولو لهنيهة أنه سيستوقفها حقيقة!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أغنية

اليوم، وبعد أكثر من نصف قرن، وتشرد في دروب العالم، وبعد أن صار شيخا مهدما، التقى مصادفة في بلد بعيد غريب بالأغنية الساحرة الهاربة.سمعها كاملة، عرف اسمها واسم المغنية، ومن كتب كلماتها ومن لحنها، وعرف إنهم قد ماتوا منذ زمن بعيد، لكنه وجدها ما تزال تنبعث من دمه وخلاياه، وأنها تحمل خطوط مصيره كراحة يده، وتجاعيد وجهه، ونكهة أعماقه، ورماده القديم. وإنه يحتاجها أكثر من أي وقت مضى! كان آنذاك في السادسة عشرة، عروقه كما لو منسوجة من نقيضين؛ الغصن الجاف، والبراعم الخضر. أحلاماً وذكريات. يسير ببطء ساهماً ذاهلاً في طريق ترابي. ظهيرة ساخنة، هواء ساكن، والصمت يرن ويدوي! فجأة صار كلما تقدم في خطواته يسمع أغنية؛ موسيقى ناعمة شجية. مغنية ملتاعة، لحن غريب مؤثر، تتدفق آسرة من مذياع داخل بيت في حي قديم مبعثر من قلب أيس.

تتغلغل في روحه، وتجتذبه. توقف، لم يعد يستطيع السير، اللحن والصوت والكلمات خيوط حرير تلتف حول قلبه وساقية وتجبره على التوقف والإصغاء! فجأة توقفت الأغنية. انطلق من شباك البيت، ضجيج وصخب أخذ يتعالى، كأن ثمة عراك أو مشادة اندلعت هناك. تلاشت الأغنية في الفضاء الساخن المغبر،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكنها هبطت إلى أعماقه، راحت تصدح في روحه.

ود لو عرف اسمها واسم المغنية، رغم إن بيتهم الفقير يخلو من مذياع، ولا أمل له بالحصول عليها. واصل سيره، والأغنية تدور في أحشائه، بصمت مبهم محير. لا يعلم كم مضت من أيام وشهور! عندما انبعثت من ساحة البلدة الصغيرة، ظنها تصعد من أعماقه كما في كل مرة، حيث ظلت تسكنه متشبثة به. لكنه عرف أن الصوت الجميل المهيمن يأتي من ذلك المقهى المزدحم بالرجال الذين لا يجرأ على مقاربتهم. قارب المقهى أكثر من الحد المسموح به لصبي فقير مثله؛ فهو لا يستطيع الجلوس فيه، أو حتى الوقوف بجانبه، والأغنية المجهولة الآن تناديه، لكنها انتهت فجأة، وانطلق صوت مذيع أجش يقدم نشرة أخبار. أخذه سهوم حزين. ثمة شاب بعمره يعرفه يجلس على تخت، سأله:

ـ أتعرف اسم الأغنية التي انتهت الآن؟ ضحك الشاب، قال بازدراء:

ـ عن أي شيء تافه تسأل؟ ماذا جرى لعقلك؟ اسمع نشرة الأخبار، الدنيا تشتعل، وأنت تسأل عن أغنية؟ مضيفا بلهجة قاسية:

ـ أم ما زلت مفلسا، لا تستطيع دفع ثمن شاي المقهى؟

انسحب ذليلاً مهاناً، لكن الأغنية ظلت تدور في أعماقه، وبشكل ما جعلته ينسى كلمات الشاب الجارحة.وظل حزينا!

تمضي الأيام وتعاوده الأغنية من هنا أو هناك، كلما سمع نغمة منها في طريق أو محل عام، هرع باتجاه المذياع؛ فلا يحظى منها سوى بنفحة أو نسمة شذا تبقيها مجهولة عصية تناديه وتزداد سحرا وجاذبية. ظل لا يعرف اسمها ولا اسم مغنيتها، صار حلمه أن يجدها كاملة؛ يصغى لها في جلسة ساكنة هانئة.كلما سأل عنها قوبل بضحكة أو هزة رأس أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صمت مطبق؛ لا يخلو من سخرية أو غضب مكتوم! صار يعجب أحقاً أن لهذه الأغنية وجود؟ أم هي حفيف أطياف، أو وهم عطر، وصوت يأتي من بعيد؟ وهو وحده فقط يسمعها، ويهيم معها!

اليوم وهو عائد من المحل الذي اشترى منه شريطها ألفى نفسه لا يزال في ذلك الطريق المترب الممتد بعيدا، الصمت عميق يرن ويدوى، ثم فجأة تنفجر صيحات ومشادات وعراك وقتول وصراخ وراء نوافذ المدينة. والأغنية الجميلة الحزينة، رغم أنها في شريط بجيبه، وإنه سمعها كاملة في محل البائع قبل ساعات، لكنه لم يلتق بها بعد، وإنها ستبقى كعادتها نجمة بعيدة تبزغ مضيئة؛ ثم تختفي وتتلاشى. ولا شيء هناك غير تلك اللوعة واللهفة في قلبه المنهك الذي قارب على التوقف وإلى الأبد!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سمك في ذاكرتي

سمك بشتى الألوان يسبح في حوض ذاكرتي! وربما في حوض زجاجي على منضدة في مقدمة الحجرة، جميل جدا كأنه فتيات عاريات يرقصن في غيمة حطت على مرج من الزهور!

يخترق السمك الزجاج السميك كل يوم! يزحف على الجدران الرطبة، يلتهم ما عليها من عناكب، وأسماء محفورة غابت إلى الأبد، وبقايا ملصقات وأغان ودخان!

مسمومة هي الجدران لكثرة ما تتلقى من رذاذ الأفواه، ومما ترى من هذا وذاك، وتلوذ بالصمت، كانت الأسماك تغدو متوحشة فجأة، وتأكل الكلام القديم، وتأكل الصمت أيضا!

هي لجوجة ثرثارة بمتطلبات لا تنتهي، لم تشبع الجدران شراهتها، صارت بضراوة التماسيح!

تنطلق إلى أعماق البحار، ثم تعود، وأسمع منها حكايات شتى عن جنيات ورحلات موفقة وخائبة!

أعرف من خلجاتها أنها تأكل جثث الغرقى، مع أبنائها الأسماك الصغيرة، وحديد مخلفات الحروب القديمة! ابتلعت غواصات كبيرة، وجبالا من المرجان في ساعة واحدة! أية أسماك هذه؟ من يصدق أن هذه الكائنات الصغيرة الزاهية تمتلك كل هذه القسوة؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سكنت حوضاً منخوراً، في ذاكرتي، حجرتي أضلاعي، لا فرق، وأية سكنى! في كل مساء تجوع وتصرخ أفظع من ذئاب في البرية، وعلي أن أضع قلبي في الحوض لتنهشه فهي لا تهدأ حتى آخر قطرة من دمي!

استعير من الجدران حفنة صمت، دموعا من رمل! مشكلتي أن هذه الأسماك لم تعد في ذاكرتي وحسب بل صارت حقيقة شاخصة وكل من يدخل حجرتي الرثة يقف أمام حوض ها متوسط الحجم مبهورا ليسألني بلهجة اتهام:

ـ من أين أتيت بهذه الأسماك الجميلة؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟

كان يسير مع صديق له في حديقة عامة، استوقفه رصيف زهور الأقحوان، متفتحا ريانا بألوانه البهيجة المشعة تحت الشمس، طال وقوفه بعض الشيء فاستحثه الصديق للسير، كانت عيناه قد اغرورقتا بالدمع كما في كل مرة، وكان صديقه الذي يلازمه كظله أو كنفسه ذاتها يرقبه ويلحظ ارتباكه وندى عينيه كلما مر برصيف ورد الأقحوان المنتشرة صفوفه كالسجاد في هذه البلدة السويدية البحرية، سأله مبتسما كأنه يداعبه :

ـ لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان؟

لكنه وجد السؤال جديا بل أكثر ثقلا، أحسه يسقط في أحشائه شفرة حادة. ندت عنه همهمة خافتة، وهزة رأس خفيفة، اظهر ابتسامة خفيفة، قال مرتبكا وكأنه يعتذر:

ـ حقا، أعرف، ولا أعرف!

ومع إن كلماته كانت قليلة لكنه ندم عليها، كيف أطلقها وكان دائما يكتمها؟ وغص بآلامه. فوجئ الصديق بدموعه وما غشى وجهه من حزن؛ فلم ينتظر إجابة. جذبه إلى تجمع لناس كثر في الحديقة، ملتفين حول مسرح رخامي يقدمون فيه عروضا هزلية يتعالى حولها ضحك أطفال وصبيان وأمهات وجدات!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ظل هو غائبا عما يتعالى حوله من ضحك وصيحات الممثلين والمهرجين والمعجبين ومستحثي الاستعادة، وشغله سؤال صديقه، أمر غريب حقا، رجل تجاوز السبعين يبكي عند رؤيته زهرة الأقحوان؟ ربما ظن صديقي أنها زهرة حب قديم محطم، حسنا هي كذلك ولكنها لحب آخر أيضا! ربما هو الأعظم! وتعالت حوله الضحكات والصيحات المرحة!

وكأنه طار من هذه الحديقة الكبيرة في المدينة التي يسكنها منذ عقود من السنين، إلى تلك الشقة الصغيرة قبل أكثر من عشرين عاما، قرب نافذة تطل على عتمة مساء، ودنيا في ذبولها أو أفولها! من حقك يا صديقي أن تستغرب ذلك! سأحاول أن أهبط الوادي أمامك، لأجمع ذكرياتي المبعثرة هناك، أعني أحاول جذب قلبي من تحت الصخرة التي سقطت عليه منذ زمن بعيد! ومع ذلك القصة بسيطة يا صديقي، ليست كبيرة، ولا هامة، ولا معقدة، بقدر ما هي أليمة، هل حدثتك عن أمي؟ كنت أنا قد غادرت البلاد قبل سنوات مضطرا محملا بهم سياسي كبير, تركتها وحيدة، يومها قلت لها بصفاقة وقسوة: "سألحق بقضيتي فهي عندي أهم من كل شيء! "طبعا هي بقلب الأم لم تتصور، أو تصدق أنني يمكن أن أقول أن قضيتي السياسية أهم منها وهي الأم التي ضحت كثيرا من أجلي وسأتركها وحيدة، لا معيل لها غيري! كان والدي قد توفى منذ زمن بعيد. حاولت التواصل معها من حيث حللت في هجراتي. ولم استطع إعانتها إلا بالقليل! صادر الحاكمون بيتي بسبب نشاطي ضدهم! ولم استطع أن افعل شيئا. وجدت أمي العجوز نفسها شريدة دون بيت، تتقاذفها بيوت الأقارب! بعد سنوات طويلة من استقراري في السويد وجدت أنني استطيع أن آتي بها لتقضي بقية حياتها بيننا أنا وعائلتي! بعد جهود كثيرة أفلحت في ذلك، جاءت الأم إلى السويد وأضحت لاجئة مثلي! منحتها البلدية شقة صغيرة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وحرصت أن تكون في العمارة التي أعيش فيها مع زوجتي وأطفالي الثلاثة، سكنت شقة صغيرة في الطابق ما قبل الأخير من العمارة، والمصعد جاهز دائما يسهل تنقلنا ولقاءاتنا! قضت حوالي ثلاث سنوات معنا، حاولت فيها أن أعوضها عن عقوقي لها وأنا مستغرق في ما تبقى من قضيتي السياسية التي فشلت، أو فشلت بها! أحس تحوها بالذنب دائما، أتيت بها من أرض وأناس آلفتهم وكانت تحبهم، جعلتها تسكن أرض البرد والظلام والصمت، أأنا من سبب لها كل ذلك؟ كان بالكاد يسمع أعماقه فقد كانت أصوات المهرجين والأطفال والصبيان يتعالى تصفيقهم الحاد؟ كأنهم يصفقون ساخرين مما حدث له!

آخر أيامها معنا، أتذكر ذلك تماما، أتيتها بسندان فيه نبتة بلاستيكية لزهور أقحوان حمراء فاتحة. وضعتها على قاعدة نافذة حجرة الجلوس، ونسيت أن أحدثها حولها، لكنني لاحظت بعد أيام أنها أخذت تسقيها ووضعت قارورة ماء بجانبها! لا ادري لماذا تركتها في وهمها؛ربما لأنني رأيته وهما جميلا، قد يخفف رتابة منفى أقحمتها فيه!

بدت لي فرحة تعتقد، أن أوراقها لم تتساقط بفضل رعايتها لها! هي التي لا تلمس أو تمس الوردة خشية إيذاءها. لكن ذلك المساء المشئوم جاءتني ابنتي التي في التاسعة تقريباً لتقول لي ضاحكة:

ـ بابا، رأيت جدتي تسقى الزهرة البلاستيكية!

خفق قلبي متوجسا، أضافت:

ـ قلت لها لماذا تسقينها؟ فأخذت تبكي من قال أن براءة الأطفال دائما حسنة؟ وصعدت إلى شقتها الصغيرة , وجدتها تبكي، كعادتها أحنت رأسها قائلة كأنها تعتذر عن ذنب:

ـ لم أكن أعرف!

منشورات «ألف باء Alfyaa»

وظلت صامتة برهة، رفعت رأسها محبطة حزينة؛ وراحت كما في كل مرة تردد:

ـ ليتني أموت قبل العمى!

كانت تشعر أن السكري وقد تفاقم لديها مذ فارقناها، سيصيبها بالعمى لا محالة، عبثا حاولت طمأنتها، كانت تبكي بصمت، لا أريد أن أكون عالة عليكم!

كانت حزينة محطمة وكأن آلام وأحزان عمرها قد هاجمتها دفعة واحدة.

أحس دائما أنها تستعجل رحيلها كي لا تثقل علينا! قررت أن أبقى بجانبها! في منتصف الليل استيقظت هلعا على صراخها وهي تمسك رأسها بكلتا يديها، أصيبت بجلطة دماغية، نقلناها إلى المستشفى وبعد أيام من الغيبوبة، توفيت!

بقيت كلما رأيت زهرة أقحوان تعتريني رجفة، أفكر، لو كنت أعلمتها أنها اصطناعية، لو كان الأقحوان طبيعياً وفي ترابها ما كان موتها يحدث هكذا. هل لي يد بذلك؟ طبعا! ولكن لا الآن ولا في ما بعد أستطيع أن أجيب صديقي على سؤاله مازحا أو جادا بتفاصيل ما حدث فهي ليست هامة له أو خطيرة، وربما لا تقنع أحدا غيري! ولم ذلك؟ هل سيقول لي:

ـ لا تأس يا صاحبي لهذا، من منا لا يسقي مدى العمر زهرة بلاستيكية معتقدا أنها حقيقية؟

ولكن هل سيكون صاحبي على هذه الدرجة من الفطنة ليقول ذلك، ومن هو صاحبي حقا؟ أهو المنهمك مع الراقصين والراقصات الآن؟ أم هو أنا الغارق في همي لا أفارقه العمر كله، أما أنا وهو معا وقد انغمسنا بين لهو وجد، بين حزن وسرور، وكلاهما لزوال؟

عاد لصمته الطويل، اقترب من صديقه الذي وجده مندمجاً

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بـأجواء الغنـاء والموسـيقى الصـاخبة والضـحك والمـرح وصـار يرقص مثلهم ويحـاول رغم تجـاوزه السبعين مغازلـة أو مداعبـة العجائز، والمراهقات، وقد التفت نحوه قائلا:

ـ ما لك يا رجل؟ هيا معنا! أرقص! أرقص!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

السير خلف الجنازات!

كانت أمه طريحة الفراش وقد عاودتها أوجاع قلبها، نفد دواءها؛ أعطته نقودا وطلبت منه أن يسرع إلى الصيدلية ويجلبه فهو، الذي يحميها من نوبة القلب الوشيكة! لكنه تباطأ، خطر له فجأة أن أمه في ساعاتها الأخيرة وقد تموت قبل أن يعود لها بالدواء، كان دون الثامنة عشرة، طالبا يتلقى دروسا دينية في الجامع القريب, قرر أن يضع كل ما تعلمه من دروسه في خدمة ساعاتها الأخيرة؛ متذكرا أنها الأم التي ضحت وكدحت من أجله وأخوته بعد أن توفى والده وتركهم صغارا! فانبرى يوجه فراشها ورأسها نحو القبلة، وجلس أمامها دامع العينين يقرأ ما تعلمه مؤخرا من آيات وأدعية، أضاف إليها صفحات من كتاب "ليلة القبر الأولى" تكاد لهولها ورعبها تجعل حتى المعافى يموت على الفور! جاء أخوه الكبير، وجد جسد أمه متخشبا باردا كلوح من الثلج، لامه أنه بدلا من جلب دوائها روعها بأدعيته وطقوسه المفزعة. جلس بجانبها يحاول إنعاشها، وأمره أن يذهب على الفور، ويأتي بالدواء.

في الشارع الرئيسي والوحيد بالمدينة رأى جنازة متجهة إلى المقبرة، وجد أن الثواب الذي يحصل عليه من تشييع الجنازة سيطلب به من الله أن يشفي أمه، ذلك أفضل من دواء البشر الذي كما قال في نفسه لم يشفها ومنذ زمن طويل! انضم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للمشيعين. سار الخطوات السبع المقررة من فقهاء الدين لنيل الثواب! وقد زاد عليها واحدة، ثم اثنتين؛ ليطمئن قلبه! لكنه ما أن عاد أدراجه حتى واجهته جنازة أخرى، يسير خلفها رهط أقل من الرجال؛ بدوا لقلتهم والتعب البادي على وجوههم، بأمس الحاجة لمن ينضم لموكبهم؛ ويحمل على كتفيه الجنازة معهم ولو لخطوات، حمل معهم النعش لعشر خطوات تقريبا، وذلك لضمان الأجر. لكنه ما أن سلم النعش لمتقدم يحمله، وتلفت خلفه حتى وجد جنازة أخرى؛ فالتحق بها مع الآخرين. ظل لساعات ما أن يودع جنازة قبل باب المقبرة؛ حتى تأتي جنازة أخرى، فيسير خلفها أو أمامها! ما عاد ينظر إلى النعش أو من يسير معه، فقد رأى أن الأغطية كانت تشف عن وجوه الموتى وهم في توابيتهم، بل رآهم يبتسمون وقد انفرجت أساريرهم كأنهم كانوا فرحين بأنهم سيغادرون هذه الدنيا التعيسة الفانية إلى دار بقاء وجنان، فيحس بقشعريرة! كانت البلاد في حرب، وشغب واضطرابات وقتول محتدمة منذ زمن بعيد! أكثر التوابيت عليها علم البلاد، أو حاكمها، وأغطية حمر مبقعة بالأسود. والجنازات تترى كل لحظة كأفعوان أسطوري طويل مرقط يتلوى من بداية الأفق لنهايته. أنهى مسيرة الخطوات السبع خلف كل جنازة صادفها، وصار يلهث، فقرر هذه المرة أن يستريح قليلا. انتبذ مكانا من عزلا من المقبرة، كان الجو حوله صاخبا، والغروب يخيم شاحبا طافحا بالعويل والتهجد. والأرض ما تزال ترتج تحت جنازات ونعوش تتقاطر، فكر أنه سار خلف الجنازات الكثيرة ما يساوي ألف ميل، وسيسير خلف جنازات أخرى، وهذا سيحقق لوالدته ثوابا عظيما يكفي لشفائها وستغفر له تأخره عن جلب دوائها. أخذته غفوة عميقة. صحا على يد تهزه، فز مبهوتاً، كان شقيقه الكبير:

ـ أما كفاك أنك لم تجلب لها الدواء؟ ثم لم تسر في جنازتها!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

طلب منه باكيا، أن يدله على القبر ليقف ويقرأه الفاتحة. وما لديه من أدعية وصلوات. ولكن شقيقه كان غاضبا عليه، تركه صامتا، في المقبرة ومضى!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أيها الطفل خذها!

ماذا تفعل أيها الطفل الجميل في الحانة؟

أتعتقد أن سبعين عاما تكفي أن لا تجعل منك طفلا؟ من أتى بك إليها؟ وجعلك تعتادها حتى نسيت بيتك الخالي؟ ريح عاتية؟ كلمات جارحة؟ أم دموع متحجرة؟ كوكب يشق السماء؟ أم زبد البحر؟

الغصن نفض أزهاره الحمراء في الساقية منذ سنوات عديدة، والساقية صبت في المستنقع، وانتهى كل شيء!

ماذا تفعل أيها الطفل الجميل هنا؟

أتعلم أن ثمرة الوهم قد سكنها الدود والنسيان؟ وإن الليل حين يجن هنا يحيل الطير إلى غبار؟

أين تلك الصيحات العارمة؟ أين تلك الدعوات الكبرى؟ في الشمس؟ في الظلال؟ أم في منزلقات الحرير والصخور؟

واسمك الذي كان؟ هل حفظته الرياح، أم صار رقما في قائمة تالفة لحزب مندثر؟

لا تقل لي أن الشيب قد علا رأسك، لا تقل أن أسنانك قد تساقطت، لا تقل أن لديك دموعا تكفي لغسل كل كؤوس الحان، لا تقل أن جلدك لا تخترقه شتائم المتعتعين؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أنت طفل هنا رغم إنك راوغت الجراح وابتلعت الشيخوخة! ألا تسمع هذه الأصوات الغليظة حولك، هراوات بيد الأشباح؟ أنابيب المجارٍي تبعث تراتيلها المغرية، دوي أنابيب البترول تحضر لحروب أخرى، تلاحقك حتى لو انزويت في قبو الحان! أنت تحرق روحك بأنفاسهم الملوثة، آن لخطاك أن تحيد عن الظلال الوارفة والظلال الهاربة من أشخاصها وتسكن لزاوية في المدينة؟ لا تحدثني كيف قاربك سيمر بين شواطئهم المدججة! كيف لعينيك ستتسع للعبهم المقنعة بالأحزان، والخشوع! لا تضع ومضة النور؛ كما ضيعتها مرات ومرات!

العجوز الجالسة وحيدة قريبا من النافذة، بعد أن رأتك استعادت جمالها القديم، ونبت لها جناحان، أكبر من جناحي أي ملاك تحدثت عنه الكتب، لا تنظر إلى وجهها الشاحب وقد كسته التجاعيد هي في انتظارك دون أن تدري، ودون أن تدري أنت طبعا، أيها الطفل العجوز، خذها! خذها من يدها المرتعشة، كأنها لم تحتس كأسين وهي تنظر إليك؛ حلقا معا إلى هناك، لا طريقاً غير ذلك!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جئتك لنبكي معا!

دخل علي وأنا متمدد على سريري في حجرتي الصغيرة، كان يحمل بيده علبة مناديل ورقية، وقبل أن أسأله عنها قال:

ـ جئتك بها لنبكي معا!

قلت له واجما:

ـ لكنني لا رغبة لي في البكاء!

أضفت مستدركا:

ـ بالأحرى لا أستطيع البكاء!

ـ بل أنا بحاجة للبكاء! علمت اليوم أن أمي قد ماتت، أم تموت دون أن ترى ولدها الوحيد لثلاثين عاما؛ ألا تستحق أن أبكي من أجلها؟ خاصة وإنني ذلك الولد الوحيد العاق!

ـ ولكن أمي قد ماتت قبل سنوات، دون أن تراني أيضا، أعلموني بموتها منذ سنة تقريبا، ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول أن أبكي، فلا أستطيع!

رد بلهجة متوسلة:

ـ إذن لنبك من أجل أمك، لندع أمي، لها السماء تبكيها، والضفادع، والكلاب وحجارة الطريق التي مرت بها جنازتها يبكون عليها!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ لا أستطيع أن أبكي، لا من أجل أمي، ولا من أجل أمك، ولا حتى من أجل كل الأمهات ثاكلات أو مثكولات!

ـ لنبك يا صديقي من أجل بلادنا فهي تحترق كما نسمع، فقط لنبك!

ـ اللعنة! ليتنا لم نبك عليها يوما، بكاؤنا هو الذي جعلها اليوم تحترق، كانت دموعنا ملوثة، نوعا من المتفجرات!

سكت وظل يدير وجهه ثم سألني كطفل لا يفقه شيئا في هذه الدنيا وهو الذي كان لسنوات يعمل في السياسة بل يريد أن يكون قائدا أو قياديا:

ـ مع من ابكي إذن؟

ـ اذهب إلى الشارع ربما تجد عاهرة اتفق معها بدلا من بكائكما الخبيث على السرير، ابكيا على الأريكة أمام شمعة تبكي معكما، أظنها ستوافق، فهذا أسهل وأنظف، وأجمل، فقط أجزل لها العطاء!

ندت عنه ضحكة حزينة قصيرة، وقال بلهجة مستنكرة:

ـ أتريدني أن أبكي على أمي مع عاهرة؟

ـ وماذا في ذلك؟ أليست العاهرة إنسانة معذبة؟ جرب! ربما هي ستبكي معك كثيرا، حتى أكثر مني! بكاء عاهرة معذبة أدركت مصيبتها ووجدت من يبكي معها يكفي لتطهير الدنيا كلها، يا صديقي، لا تستهن بالعاهرات فهن طيبات ضحيات عموما!

ظل يدير رأسه الصغير الذي شاب أمامي في المنفى مذ رأيته في سوق السمك بمدينتنا الباردة قبل أكثر من ثلاثين عاما!

نهض مسرعا، ودخل المرحاض. سمعته يبكي، أحسست إنه يكبت نحيبه كمن يخنق نفسه، لم أعد أسمع شهقاته المرة, طال

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مكوثه في المرحاض الصغير، قلقت عليه، تصورته قد شنق نفسه في ماسورة السيفون، لعنت المنفى والمراحيض ومن اخترعها! هممت أن أذهب وأستطلع ماذا جرى له، لكنه جاءني محاولا أن يبتسم، عيناه كانتا حمراوين، قال:

ـ ألا زلت مصرا على عدم البكاء معي؟ لم أجبه. غير سؤاله:

ـ أين ابكي؟

ثم باضطرابه غيره مرة أخرى:

ـ أتعتقد أن البار مكان مناسب للبكاء على أم ماتت دون أن ترى ولدا عاقا انتظرته ثلاثين عاما؟ نهضت كمن لسع:

ـ لا أبدا!! أحذر! كلهم يبكون هناك، يبكون كثيرا، حتى لم يعد للبكاء معنى!

نهضت وقد اعترتني نحوه شفقة مباغتة، لكنني مع ذلك جذبته بقوة إلى النافذة الصغيرة وحشرت رأسه فيها قلت:

ـ ألا ترى ذلك الجبل الأجرد، في نهاية مدينتنا، اصعد إلى قمته، ابك هناك! ربما يسمعك الله ويرد لك أمك، بل ربما يهبك امرأة جميلة طيبة معها أيضا، فقط عليك أن لا تجعلهما تتعاركان غيرة وحسدا من أجل وجهك الكالح!

نظر إلى الجبل الذي صعدناه معا كثيرا، كان كأنه يراه لأول مرة، عاودني نفس الشعور قبل عام، كأننا نرى الأشياء لأول مرة بعد فقد الأم، أو بغير ما علمتنا إياها ونحن نمزق أحشاءها ونخرج، مع الطيور الصغيرة وهي تغادر أعشاشها! كنت أعرف إنه سريع التصديق، لكنني لم أتوقع إنه سيصدق اقتراحي هذا. حمل علبة المناديل الورقية، وخرج مسرعا، رأيته من وراء زجاج الشباك وقد اندمج بظله في هذا المساء المعتم، فصار له جناحان، ومضى محلقا باتجاه الجبل!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ولكن، أين هو البحر؟

منذ زمن طويل وأنت تكتب لي:

ـ اشتر سنارة بشص متين حاد، وخيط طويل، طويل! سنذهب معا إلى الصيد؛ فالبحر زاخر بالسمك الكبير اللذيذ!

وتارة تكتب لي:

ـ سنغطس عميقا، فهناك الكثير من اللؤلؤ والمرجان، والنبات الشافي، وربما نجد عشبة الخلود! لا تصدق من يقول لك أن ماء البحر ملح أجاج؛ حتى لو كان لسانك!

وفي أخرى تقول:

ـ قد يهبنا البحر لمسة حنونة، فيجعلنا نرى ابنته الأبدية: تلك الحسناء الفاتنة التي نصفها سمكة!

وتصر أن تبقى ظريفا، رغم كآبتك في الآونة الأخيرة:

ـ لا تجعلنا نختلف، هي لي منذ الآن!

منذ زمن طويل وأنا أسير في الصحارى وشعاب الجبال إليك، سرت طويلا، لا شيء أطول منه سوى خيط سنارتي، حتى خلتني قد ابتلعت الشص، وإن الخيط صارت بيدك، أو بيد ذلك الحلم الأهوج! أعذرني يا صديقي؛ إنه مجرد ظن! ما في زوادتي من ماء وخبز يكاد ينفد، وهذه سنارتي يا صديقي، بخيط

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

طويل طويل، وشص لا يفلت منه حتى سمك السراب!

نعم يا صديقي هذه سنارتي جاهزة، ولكن أين هو البحر؟

محروق أصبعه!

كما في أيام كثيرة، يستعصي على البيت رغيف خبز تفوح منه رائحة الصباح!

تتضور العائلة جوعا، وتسحق بأمعائها دقائق الوقت، حصاه وشوكه، حتى يجن الليل، تدور الأم على ضوء مشعل في زوايا الحجرات الآيلة للسقوط تجد كسر خبز يابس تعطن وفاحت منه رائحة دهر غشوم!

بدلو ماء، وبقايا بصل، ونفحة نار، يتكون طبق، يصير بدرا، وقد هبط من السماء إلى أيديهم المرتجفة!

وتقول الجدة العجوز، إنها الثريدة، محروق أصبعه، هي نعمة الله، ليتها تدوم!

ويتخيل الطفل أن الله حين أعد لهم نعمته؛ الثريدة، احترق أصبعه!

سنوات صباه ظل يتصور الله بأصبع محروق!

وأنه وعائلته هم الذين أحرقوه، فيحس بذنب وألم!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تدريبات مسرحية

كلما خابرت صديقي وسام العاقولي، لأطمئن عليه، أو لأعاتبه على قطع أخباره عني رغم حرصي على التواصل معه؛ يقول لي:

ـ اعذرني يا صديقي العزيز فأنا منشغل هذه الأيام بتدريباتي المسرحية!

ـ إلى هذه الدرجة تصدك تدريباتك المسرحية عن رفع سماعة التلفون ومكالمتي؟ كان ذلك منذ أكثر من أربعين عاما، عندما كان التلفون أسود ثقيلا كأنه آلة لفرم اللحم!

ـ نعم يا عزيزي، صدقني لا أجد الوقت حتى لتنا ول منديل ومسح عرقي!

ـ ما هي المسرحية التي تعمل عليها؟ ـ دعك منها الآن، ستكون مفاجأة الموسم!

وأتركه لحاله. لكن المصيبة أن السنوات تمر ومسرحيته لا تظهر ولا ترى النور أبدا، وكلما سألت من أعرفهم من عراقيين يعيشون معه في مدينة لوليو السويدية القابعة قرب ثلوج القطب الشمالي، يقولون إنهم لم يروا، ولم يسمعوا شيئا عن مسرحيته، قال لي أحدهم:

ـ لا أدري عن أية مسرحية يتحدث، فهو لا يعمل في مسرح

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ولا في أي مكان آخر، يقضي أكثر وقته وحيدا في مقهى بعيد، ودائما يختار أن يكون وجهه إلى الجدار، هو لا يريد أن يرى أحدا!

ـ ولكنه كان فنانا مسرحيا معروفا في العراق!

ـ لا أدري، ما أعرفه إنه هنا عاطل، انعزالي وصامت. ولا بد أن أقول لك إن وجهه حزين يدعو للشفقة، أتعرف شيئا عن حياته؟ ـ قصة طويلة!

وعندما صارت التلفونات صغيرة ملونة مثل طيور الحب، أكثرت من مكالمة صديقي العاقولي، ودائما يكون جوابه:

: ـ اعذرني يا صديقي أنا منشغل بتدريباتي المسرحية!

واليوم وبعد أربعين عاما على فراقنا وبدء تدريباته المسرحية اللانهائية التي لم تهتز منها خشبة ولا ستار،، أطلقت طير الحب الأبيض إليه؛ فجاءني صوت زوجته:

ـ لقد مات!

بقيت ذاهلاً لا أدري ما أقول، يبدو أن المرأة انتظرت طويلا كلماتي المحتبسة في صدري ثم أغلقت تلفونها، الذي هو تلفونه، صفنت، كنت مع العراقيين في مدينته أظنه يكذب، ويدعي، وأن لا مسرح ولا مسرحية لديه، وها هو اليوم قد أسدل الستار، يا لغبائي!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القيثارة السومرية

رأيت قيثارة سومرية في سوق الهرج

أي مفلس أهوج باعها في سوق الخردوات هذا؟ لم تكن تهيؤات، همست هي بأذني:

ـ أحقا الطريق إلى أور صار طويلا؟ ـ وأطول مما في الخرائط!

شف لي طيف جميل يتنهد تحت وجه الأوتار! عرفت انه حبيبها، فلكل قيثارة حبيبها! ذلك قانون سومري سرى في العالم حتى اليوم!

لما رأى البائع لهفتي صار يزيد في السعر، أخيرا ضجر وحسم الأمر:

ـ وعدت بها رجلا أجنبيا!

خرجت من السوق محزونا.

لم استطع النوم.

صرت أتسمع حفيف النسمات، حين يجن ليل بغداد سيخرج الطيف من صدر القيثارة يدور في الشوارع والساحات، يطرق أبواب بعضهم فلا يفتحون، هم خائفون من كل خطو غريب!

يدور تحت النوافذ يفضي لها: هاكم أنغام قيثارة تتذكر مدينتكم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حين كانت شوارعها أوتارا تغني تحت خطى العابرين!
قبلة للعاشقين.
جداول تفيض زهورا وفساتين!
أصخت السمع لشدو يذيب القلب حتى انبلج الفجر!
قررت أن أبيع كل غال وبخس لدي وأسبق الرجل الأجنبي.
أقتسم معها هذه الأيام الجافة كخبز يبس ونخره الدود والعفن.
هل سأجدها؟ هل أستطيع الفوز بها بين بائع همه المال، ومشترٍ همه لا يدرك كنهه أو مداه؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الحب والكناس!

عندما تركتني حبيبتي على رصيف الورد

لم تنحن ولو زهرة واحدة، لم تسقط من الأشجار قطرة ندى، أو رحيق منعش!

لم يرسل ولو عصفور واحد نغمة حزن أو فرح.

لم تلملم غيمة أطرافها وتهطل بزخة أغطي بها دموعي من أنا؟ من أنت؟ ليكترث لنا الكون؟ لو أدركنا ذلك!

ربما بقينا معا نداري ضعفنا في هذه المحنة الكونية الأضيق من مصيدة الغزلان!

عظامنا تتشابك كأغصان شجرة وحيدة في غابة هائلة!

لكنني أنا المجنون بها خيل لي حينها أنني أغرقت الشارع بدموعي!

حين اصطدمت بالكناس ورأيت عاصفة الغبار الذي كان يثيره في طريق طويل جاف تأكد لي أن دماغي شيء، والشارع شيء آخر، وإنني لم أجن بعد!

شكرته ومضيت

لو ظل ألف عام واقفا في مكانه يفكر لما عرف على ماذا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شكرته، وقد كلل رأسي بكل هذا الغبار!

نسيت أن أقول كان الوقت صباحاً ساكنا كأنه بدء الوجود!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

البيت المهجور!

بني هذا البيت الكبير بآجر بغدادي مزخرف لا زال يحتفظ بلمعانه الذهبي رغم تقادم الأعوام!

كلما مررت به أحس بقلبي يجرح بسياجه الشائك ويتوقف وكأنه علق بسنارة!

أتساءل في نفسي من بناه؟ من تعاقب عليه، لماذا هجره أهله وأين مضوا؟ ولكن أسأل من؟ لا شيء حوله سوى خلاء مديد. هذا المساء الخفيف الظلام، توقفت عنده، كان مضاء بقمر كأنه هبط على سطحه ساعة، وسيعود لسمائه!

أسندت جبهتي على أحد شبابيكه محاولا انتزاع قلبي من أسلاكه الشائكة.

فجأة أخذت أسمع رنين تلفون يرن في داخله، من هذا الذي ينشد هذا البيت المهجور منذ زمن طويل؟ من هذا الذي تذكرهم الآن؟ أعاد ساكنوه وهم فيه الآن ولا أراهم، وإطلالتي من الشباك تلصص مذموم ومحظور؟

أمعنت النظر، كانت أقفاله الصدئة الثقيلة في مكانها، والتلفون يرن ويرن كصفائح نحاسية تتدحرج في بئر عميق. انقطع الرنين هنيهة ثم عاد، إنه يقصد أهل هذا البيت تماما، من هذا الذي تذكرهم، ماذا يريد منهم؟ ماذا يعتقد؟ رحت أصغي، لو فتح

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لـي بـاب أو شباك، هل يحق لـي أن أرفـع السماعة لأقول: مـن؟ وهـل هـو مـن سـيعلمني بشـيء عـن أهـل البيـت، أم أنـا الـذي سـأعلمه؟ تلفون يرن كيد تدق بابا لبيت مهجور، صرخة طير على قبر، بصعوبة انتزعت نفسي من الشباك، لكن رنين التلفون في ذلك البيت المهجور لا يزال يمسك بقلبي وخطاي حتى إنني صرت أتعثر كلما سرت في ط ريق فيه بيوت قديمة!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عازف العود

جلس على كرسي عتيق، في مسرح المدينة، وضم العود إلى صدره، كان لا يعزف إلا بريشة طائر أصغى له كثيرا في طفولته يبعث عند الغروب ألحانا شجية!

قيل أن المسنين فقط يفهمونها، وما كشف عنها أن الطائر آنذاك يودع النهار بتغريدة جديدة، ويحتضن المساء بخشوع!

اليوم بدا على العازف المسن من نغماته الأولى أنه يودع زمنا بأكمله، ذلك ليس تخمينا، ثمة دليل أن الشمس عادت بعد دقائق من رحيلها لتنثر جدائلها الذهبية من النوافذ وتجعل الستائر تهفهف، مناديل تلوح من على شرفات منازل تودع أبناءها الراحلين!

الرجل الكهل في المقعد الخلفي كليل البصر لا يدري كيف في تلك اللحظة رأى على البعد الشاسع (كأنه ألف كيلو متر) كل شيء على المسرح، حتى الزخرفة الدائرية في وجه العود!

لكن ما رآه بعد هنيهة جعل قلبه يخفق وبدأ يطير!

كانت ريشة الطائر بيد العازف لا تضرب الأوتار، بل تخترق العود وتغوص في الصدر لتعزف على شرايين وأوردة القلب!

لم يرى دما!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رأى النغمات بأم عينيه ولم يسمعها بأذنيه تحلق زهورا إلى السماء!

رآها تتسلل إلى روحه هو أيضا، وتفتحها قارورة خمر ودموع، وعطر نساء جميلات، وخيبات وعود كبيرة!

رأى الجمهور المنفلت بصرخات وصفير مجنون يتوارى ويختفي من القاعة كأي شيء ليس في مكانه الصحيح! أو حتى فائضا عن الحاجة!

ظل يرى قلب العازف المفتوح يرسل نغماته الحزينة!

الطائر يعود ساحبا خلفه النهارات القديمة الطويلة منظومة في خيط، مع طائرات ورقية ملونة، وبينما تتلاشى الشهب والنيازك وذيول الطائرات والصواريخ المغيرة؛ يمتد قوس قزح ندي فواح من المهد إلى اللحد!

رأى الشمس لا تريد أن تخلع عباءتها الليل وترحل!

رأى الزمن الذي كان يتوكأ على عكازين؛ يعدو مسابقا بيوت المدن المتراجعة بسبب قطار مسرع!

هل رأى حقا كل شيء؟ كيف إذاً حين اقترب من العازف انشده تماما!

فقد وجد أن أنفاسه متوقفة، لا يدري منذ متى!

بينما يده وريشة الطائر لا زالتا تلعبان على أوردة وشرايين قلبه المفتوح!

وترسلان كل هذا الانتشاء العظيم!

والجمهور وضوضاءه ومنظمو الحفل قد غادروا المكان منذ زمن بعيد!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فقط أراد أن يرى وجهه!

عندما يسير تبدو قامته المتوسطة النحيفة أشبه بظل لجسم آخر لا تدري أين هو، وجهه بسيط الملامح مغمور بعتمة لاصقة به حتى حين يكون الجو بصحو نادر، وشمس دافئة بعض الشيء. يمشي ببطء كأنه يعاني من عرج خفيف. تجاوز الأربعين لكنه يبدو اقل عمرا حتى إنه يضحك مع أصدقائه حين يقولون له "المصائب والفقر والتشرد جعلتنا أكبر من أعمارنا، إلا أنت جعلتك تبدو صبيا!". عرفته منذ الأيام الأولى لوجوده في هذه المدينة، صادفته في أحد المتاجر، سألني عن نوع من التوابل! أجبته ضجرا: "تجده في محل الشرقيات!" وعندما أراد مواصلة الحديث، أشحت عنه لمللي من تطفل الكثيرين في أحاديث تافهة أجدها مضيعة للوقت والجهد! لكنه ظل يلقي عليَّ التحية كلما التقاني ويحاول التقرب مني فصرت أبادله بعض الحديث، وعرفت إنه شاب طيب مسالم وإن كان كثير الكلام، ويسميه أصدقاؤه "الثرثار"! وإنه عاش في وطنه العربي مصائب كبرى، مقتل أخويه ووالده

، واختطاف شقيقته، وموت أمه. عندما جاءني خبر اعتقاله هنا بتهمة شروعه بعمل إرهابي أو تخريبي لم أصدق! ولما عرفت ما بدر منه ازددت اقتناعا ببراءته؛ لكن هنا من تلصق به تهمة الإرهاب يصعب عليه إزالتها! يمكث في اعتقال وتحقيق ومراقبة فترة طويلة ثم يحال لقضاء لا تدري إن كان متأنيا أو لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مباليا! اعتقل اثر حادثة تافهة، بل مضحكة ولا تخطر على بال! كان يسير في شارع فرعي وكعادته في تلمس وجهه وشعره دائما، وتعديل قيافة ملابسه القديمة حائلة اللون، راح يتلمس شعر رأسه القليل غير المرتب ويمرر يده على وجهه، واجهته مرآة بحجم كبير بعض الشيء مستطيلة بارزة من ذراع فضي من مقدمة سيارة باص بيضاء من تلك التي تستعملها شركات التوزيع في إيصال بضائعها إلى البيوت والمحلات؛ فتوقف دون تفكير أمامها وأخذ يتأمل وجهه، ويحدق بملامحه. ربما فكر إن كان وجهه يقتضي حلاقة، أو شعر رأسه يحتاج لإعادة تمشيط أو ترتيب، نسى نفسه، حسب إنه في بيته القديم حيث ثمة مرآة، أو مرايا، فمد يده يفتش في جيوبه عن مشط كان يحمله، جاء سائق السيارة أو صاحبها الطويل الضخم راكضا، ظنه يحاول فتح باب قمرة القيادة أو يحاول أن يضع شيئا فيها؛ فأمس ك به! في تلك اللحظة كانت مفرزة شرطة تمر قربهما بسيارتها فسلمه لهم مدعيا إنه حاول وضع قنبلة أو شيئا ما في سيارته! في هذا البلد الأوربي، كانت قد حدثت أعمال إرهابية كثيرة راح ضحيتها كثيرون والإخباريات الإرهابية تتوالى كل يوم وكل ساعة، ومرشحو اليمين المتطرف يفوزون ومن أولوياتهم التشدد مع اللاجئين بل حتى طردهم! أعتقل الرجل ومضى معهم مستسلما خاصة وإن معاملة قبوله لاجئا لا زالت معلقة. كان يقول بلغته غير المفهومة لهم، (إنني كنت فقط أريد أن أرى وجهي! ولا نية لي لا لسرقة ولا لعمل شيء،) ولكنهم يجب أن يمضوا به إلى مركزهم. بالطبع سيستدعون له مترجما وسيكرر أقواله، ولكن هم سيكررون عدم تصديقه وها قد مر عامان، فقد أمله أن يقبل لاجئا، كما فقد أمله أن يخلى سبيله، وحتى الآن لا المحكمة ولا موظفين في دائرة الهجرة ولا صحيفة المدينة يقتنعون أن هذا الشاب قد مد رقبته إلى مرآة السيارة فقط لكي يرى وجهه كأنه لم يره مذ خرج من بلاده!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفارس المغوار!

سقط حصان العربة، ولم يعد يستطيع النهوض، ليس فقط لأنه كان مسنا ومنهكا. كانت الليلة ممطرة والطرق مليئة بالحفر والنفايات تتناثر عليها قشور البطيخ والموز والقاذورات , كما إن صاحبه المدعو نائل الربيعي كان يسوطه كثيرا وبقسوة ويزجه بعمل متواصل ولا يمنحه راحة أو غذاء كافيا! ولا يكف عن لومه وتقريعه كلما خلت عربتهما من الزبائن، أو كلما تذكر نائل مصائبه وحطامه مع حصانه!

كانت العلاقة بينهما تاريخا عجيبا!

لم يكن الربيعي حوذيا منذ البدء بل لم يكن أحد في أبعد التوقعات يتصور أنه سيكون حوذيا! كان رجلا ثريا صاحب أملاك ومزارع ضيعها كلها بالمراهنة في سباق الخيل وعلى حصان يدعى " الفارس المغوار"، والذي كان السبب في خسائره وإفلاسه وتحوله من غني فاحش الثراء يركب أحدث السيارات إلى حوذي يعتاش على عربة يجرها هذا الحصان يوصل بها السكارى وراقصات الملاهي وبنات الليل إلى حيث يريدون! تتلخص السيرة الذاتية للحصان "الفارس المغوار" أن أحد المساهمين الكبار في شركة سباق الخيل في المنصور ببغداد استطاع الحصول عليه صغيرا لقاء رشوة من إحدى ثكنات الجيش بعد أن صاروا يتخلون في استعراضاتهم الجديدة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عن خيولهم الأصيلة المطهمة ويعتمدون العربات المصفحة. ثم قام بتدريبه حتى صار الفارس الشهير الذي يراهنون عليه بمبالغ كبيرة وتتصدر صورته الصفحة الأولى لجريدة "المضمار "الناطقة الرسمية باسم نادي الفروسية! كانوا يربحون من أشواطه السريعة أمولا طائلة؛ إلا نائل الربيعي فهو ما أن يبيع بيتا أو عمارة بمبلغ كبير ويراهن به على الفارس المغوار وأشواطه المشهودة حتى يخيب أمله ويتأخر صفوف الخيل الراكضة ويخسر هو ثروته، ثم يسمع التعازي: "لا تأس هي كبوة حصان، ولا بد من جولة أخرى ينتصر فيها الفارس المغوار!" و يظل هو مندهشا متألما لماذا هو فقط حين يراهن عليه يكبو أو يلهث ويتأخر ويدع حصانا أو عدة أحصنة تتقدمه فيخسر ثروته، ليس هذا فقط بل إن زوجته الحسناء التي بذل الكثير ليتزوجها قد تخلت عنه وحصلت على الطلاق وتزوجت رجلاً كان يعمل حارسا على أملاكه، وراحا يسخران منه! لكن الربيعي ظل يراهن على الفارس المغوار حتى باع آخر بيت له وخسر ثمنه في غضون ساعة لا غير! وصار يسكن بيتا بالإيجار، يستدين ليقامر وظل الفارس المغوار يخذله حتى بلغ هو والحصان سنوات العمر الأخيرة! عندما قررت إدارة نادي سباق الخيل التخلص من الفارس المغوار لكبره وضعفه. تقدم الربيعي طالبا أن يبيعوه له ولا يطلقون عليه رصاصة الرحمة، كانوا يعرفون قصتهما فمنحوه له بثمن بخس! حصان العربة الذي سقط الآن هو الفارس المغوار، كان الربيعي قد اتخذ قرارا غريباً أن ينتقم منه بجعله يجر عربة تقف عند أبواب الملاهي والبارات توصل السكارى وصويحباتهم إلى هنا أو هناك، كان غضبه وغيظه عليه قد جعله يمضي بقراره رغم إن ثمن ذلك الانتقام هو انتقام أيضا من نفسه وإذلالها وإهانتها كل لحظة، بالأحرى كما أقنع نفسه أن يشاركه ذله وهوانه!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لا تكاد تمر ليلة أو ساعة إلا ويوجه الربيعي لحصانه الفارس المغوار سؤاله المعجون بدم روحه: لماذا كنت تجعلني أخسر دائما؟، لماذا دمرتني؟ وحين يخيل إليه أن الحصان يرد عليه: لم أتعمد ذلك، أنا أحيانا يعتريني تعب ولهاث أو أكبو فجأة ولا أدري لماذا، أثمة شيء منك كان يحل بي وينهكني؟ ويظل الربيعي حائراً وأنا لا أيضا لا أدري ربما أحد ما أو شيء ما كان يلاحقنا معا، ربما سنعثر عليه في احد الليالي، وهكذا يواصلان سعيهما وعتابهما وتأنيب أحدهما الآخر في ليالي بغداد المدلهمة! وكان أكثر ما يحزن الربيعي همهمة الحصان لماذا حرمتني رصاصة الرحمة إذ كان هو يسأل نفسه أيأتي يوم يطلق فيه رصاصة الرحمة عليه ثم يطلق الأخرى على نفسه أيضا!

والآن لقد سقط الفارس المغوار، تكوم أمامه جثة ثقيلة لا تزال أنفاسها تترد صاعدة نازلة بلهاث صار يخافه الآن، متوقعا أنه سيلحقه على الفور.

تذكر الآن أنه ليس لديه رصاصة ليطلقها عليه ثم على نفسه، وهو لا يمتلك مسدسا رغم تفكيره برصاصة الرحمة هذه. والعربة في وسط شارع عام وستأتي سيارة الشرطة وتحمله مسئولية إيقاف السير، لن يصدقوا أو يكترثوا بما قد يحدثهم به عن حياته وحصانه، والأهم أنهم لن يطلقوا عليهما رصاصة الرحمة حتى لو توسل إليهم بكل ما احتبس في صدره من دموع وحسرات!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عودة النسر!

اليوم قرروا أن يطلقوا النسر الكبير!

تسلوا به لثلاثين عاما في قفصه الحديدي!

شبعوا من تمتعهم به وهو يتمرغ بعذاب الأسر، فأرادوا أن تكون آخر متعة لهم منه أن يروه وهو يقف مرتبكا أمام الفضاء حرا!

صعدوا به إلى قمة جبل!

وقفوا قريبا منه مع كاميراتهم يرقبونه!

لم ينشر جناحيه ولم يطر!

ظل يتأمل الأفق!

سجلت الكاميرات على وجهه حزن وجه إنسان نفي طويلا ويقف الآن على أبواب وطنه!

أكان يسأل نفسه عن هذا الفضاء الرحيب الذي ظل طويلا خارج قلبه؟ أم عن قلبه الذي ظل في هوائه، وجناحا ه في وخمة القفص؟ يتضاحكون بخفوت قادحين ذكاءهم:

ـ نسي الطيران! صار لحمه رخوا، اعتاد طعامه جاهزا، أيعود لأكل الجيف؟ لا يستطيع فراقنا!

نشر جناحيه الواسعين، كاد يغطي قمة الجبل، حركهما مرات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بقوة، ولم يطر، طواهما وعاد متلفتا إليهم، أيريد العودة لقفصهم، أيفضله على هذا الأفق الرحيب؟ أم هو يودعهم؟ أيستنجد بهم ليعيدوا له ما سرقوه من عمره، لم يجد غير سحنات وجوههم المتعجرفة الملتذة بعذابه! استدار موجهة خط السماء البعيدة، يرف بجناحيه، حتى النسر ينسى الطيران؟ كأنه ينفض عن ريشه صدأ ثلاثين عاما، يرى الطيور الصغيرة المحلقة تنظر إليه بازدراء، أتسخر منه وهو هنا كان سيدها، وسيد هذا الفضاء؟ وهي ما كانت تجرأ على الطيران في مرمى غبار جناحيه؟ فجأة وكأنه يرفس السماء والأرض بمخالبه حلق عاليا، تاركا خلفه عاصفة تصفع وجوههم! لكن الكاميرات المقربة صورته يحط بعيداً على قمة أعلى جبل دافعا بقوائمه صخوره لتنحدر، ممسكا ما تبقى له من الزمن بمنقاره المعقوف كأنه يريد افتراسه!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لعبة المغني

قال لي:

ـ أرأيت كيف نجح ذلك المغني الدعي؟

لم أفهم ما قال، فطفق يتحدث عنه، أنسيت؟ كنا نشبه صوته بما يصدر عن منشار خشب، قلت له أن صوته لا يصلح حتى في النداء لبيع البطيخ فهو سيفسده، ويطرد المشترين. كيف صار الآن مغنيا مشهورا يحضر حفلاته الآلاف، تذكرته، قلت:

ـ إنها لعبة المغني، معروفة!

لكن شخصا كان جالسا بجانبنا عقب قائلا:

ـ بل هي لعبة الكثيرين، خاصة ساستنا!

ذلك استثارني فقررت أن استجيب لدعوة صاحبنا، لحفل له الليلة!

مذ كان عمره عشرين عاما؛ وهو في عناد وإصرار أن يكون مغنياً مشهوراً تمتلئ الساحات والملاعب بالناس القادمين من كل مكان لسماع أغانيه! كثيرون نصحوه أن يكف عن محاولاته، وجدوها عقيمة، فهو لا يمتلك حنجرة ولا حسا غنائيا، لكنه استمر مستخدما كل ما عرف به من حيل وألاعيب وعلاقات غريبة! وعلى كل حال هو الآن قارب الأربعين وقد صار مغنيا مشهورا! قالوا أن بطاقات حفلاته تباع بمبالغ كبيره ومسرحه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يشهد حشوداً من شبان وشابات وصبايا يتمايلون ويرقصون أمامه وهو يتبختر على المسرح بوجهه الوسيم وجسده الرياضي وأزيائه وتسريحات شعره وحركاته المتصنعة! كان الحفل مقاما في ساحة نصب اثري عريق، آلاتهم تصدر ألحاناً مثيرة، وتنسكب من الأعلى شلالات أنوار ملونة متموجة تتخللها عتمات غامضة مكونة منصة أقرب لساحر منها لمغنٍ. وقف المغني ينظر باستعلاء وعجرفة إلى أعمدة المكان العريق وأرصفته الرخامية. خرجت من أنفه كلمات مبحوحة متحشرجة، (عادة هو يغني بأنفه، وبخنّة واضحة مقرفة) لكن على الفور تكهربت أمامه أجساد شبان وفتيات مراهقات حاسرات وحتى محجبات وراح وا يتمايلون كأنهم في غمرة تنويم وإيحاء وثمة نيران تندلع تحت جلودهم وثيابهم الضيقة فتوشك أن تتطاير مزقاً محترقة، ارتفعت أيديهم ملوحة وأجسادهم تترنح تقترب من بعضها وتتباعد. والمغني لا يصدر عنه سوى صوت غليظ مبهم يزيدهم اشتعالا، يقترب المغني من حافة المسرح ويمد مكرفونه اليدوي إلى إليهم كمتسول يمد إناءه لمحسنين، نبرة أو نبرتان منه، ثم ما تبقى صار يأتي من الجمهور، والمغني لا يصدر سوى حشرجة، أو آهة مائعة، صار الجمهور يغني والمغني يتمايل طربا مصدرا من أنفه بين لحظة وأخرى جملة مكررة والجمهور أو همهمة والجمهور يعيدها له نشيدا عاليا، وبسرعة يستقر الحال هكذا لساعات، الجمهور يغني والمغني يستمع طربا!

حيرني الأمر؛ أين العيب في هذا الحال؟ أهو لدى الجمهور الذي كأنه مل الغناء في الحمامات والمطابخ أو الجلسات ووجد في هذا المغني شباك اعتراف أو مذبحا للنذور ليغني أمامه، أ م في هذا المغني الفاشل الذي عرف جراحهم وضعفهم واستثمرها فصار مشهورا بل معبودا؟ قلت هذا اتفاق لا يخلو من طرافة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الراحة لهؤلاء المتمايلين غائبين عن أنفسهم، غير سائلين عن لحن أو كلمات، والمال والشهرة للمغني اللعوب! خرجت متسللا عن صاحبي، قررت أن ألوذ منزويا مع نفسي، كنت مذعورا بعض الشيء، وقد شعرت أن اللعبة أكبر من هذا المغني ومسرحه وحفلاته!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تذكر في غير أوانه!

لسنوات عديدة عشت متعة روحية عميقة في لقاءاتي بين فترة وأخرى بالأستاذ شفيق الذي درسنا في المتوسطة قبل ستين عاما تقريبا، كنت أقول لا متعة روحية تعدل لقاء معلم قديم لنا كنا نخشاه ونتهيبه، واليوم نألفه ويألفنا، ويعاملنا ندا له ونعامله ندا لنا وصديقا حميما. لم نكن نلتقي دائما، بل على فترات متباعدة؛ أزوره، وأحيانا يزورني، أو نلتقي مصادفة في الطريق بوقفات نطمئن فيها على الصحة والأحوال. توفي قبل أيام، قبلها بأشهر قليلة قتلوا ولديه في الحرب الطائفية الطاحنة التي لم نكن نتوقعها يوما. قتلوهما إثر وشاية كاذبة ظالمة! وقفت جنبه في مأتمهما، كان منهارا متداعيا، قدرت إنه لن يعيش طويلا وقد تخطى الثمانين، في الحقيقة هو قتل معهما، فقد صار يذوي ويحتضر مذ دفنهما بيديه وكان عدد المشيعين قليلا بسبب الخوف والشكوك. كان يقول لي: "قتلا بوشاية حاقدة وأعرف من فعلها لكنني لا أريد المزيد من الهموم والمصائب؛ بالأحرى لا قبل لي بمناحرة احد، ولا يبدو أي شيء ذا جدوى بعد الذي حدث". وكان يخشى على ابنه الثالث وهو كل ما تبقى له! لا أدري كيف نسيت للحظة كل هذه الأحزان والآلام الثقيلة لأسرح في ذكريات تبدو خفيفة ومضحكة معه، ولا ادري كيف استيقظت في ذهني ونحن في هذا الجو من الكآبة والخوف!

كنا في الصف الثالث متوسط، في أيس، البعيدة المنزوية،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وهو من العاصمة، حين يدخل علينا في الصف يخيم علينا جو من الهدوء والرهبة، كان صارما لا تفوته نأمة من حركاتنا وسكناتنا ولا يتهاون معنا في أبسط تقصير، لا زلت أتذكر وقد مضى على ذلك هذا الزمن الطويل، رأى أحدنا يدخل أصبعه في انفه ويستغرق في الحفر، فناداه بحدة، أوقفه أمامنا:

ـ ماذا تحفر؟ بئر نفط؟ بالوعة تصريف مياه؟ هذا عمل مقزز، ويسبب لك ولنا المرض!

انهال عليه بواحدة من خطبه التي هي مزيج من اللوم والتقريع والتوجيه وأخرجه من الصف!

بعد أيام كان المعلم شفيق واقفا أمام النافذة وقد سرح ببصره وفكره بعيدا وبحركة لم يلحظها معظمنا أدخل أصبعه في انفه! ثمة تلميذ يجلس على الرحلة الأمامية صاح:

ـ أستاذ ماذا تحفر؟

تنبه وكأنه يفيق من نوم عميق، نظر إلى مصدر الصوت بوجه عابس، قائلا لزميلنا:

ـ انهض! تعال هنا!

توقعنا أنه سيقرعه أكثر مما قرع به زميلنا السابق ويطرده من الصف، لكنه وضع يده على كتفه وأفتر ثغره عن ابتسامة، قال:

ـ أنت شجاع حقا، أنا أحب من هم مثلك!

صمت برهة وراح ينشد كأنه يغني:

لا تنه عن خُلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم!

قال صفقوا له، وصفقنا!

لم تمض سوى أيام حين نهض تلميذ وأشار إلى زميل بجانبه قائلا:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ سيدي؛ هذا يحفر بأنفه!

نظرنا إلى ذلك التلميذ ولم نره يفعل شيئا، بل بدا التلميذ متفاجئا مذهولاً توقعنا أن المعلم شفي ق سيخرج التلميذ المشار إليه، لكنه صاح بمن اتهمه قائلا:

ـ تعال أنت!

أوقفه أمامنا!

ـ أتعرفون ما فعله زميلكم هذا، إنه وشى بزميله، والأدهى أن زميله لم يقم بما اتهمه به، إنه مسح أنفه فقط، أنا هنا أرقب كل شيء، الوشاية أمر سيء جدا أسوأ من الحفر في الأنف!

لم يكن يضرب تلميذا لا بعصا ولا بيده؛ كان يستعمل الكلمات، فانهال عليه بوابل منها ثم بكلمة أخيرة:

ـ لا تفعلها ثانية!

وأخرجه من الصف! ربما كان يقصد بإخراجه من الصف القول " أنك لا تستحق أن تكون بيننا الآن فقط " فهو في اليوم التالي تراه يقبل على التلميذ الذي عاقبه بحنو واضح، واهتمام خاص كأنه يداوي جرحه!

ما الذي جعلني أتذكر هذه الأشياء الصغيرة بين هذا الركام الهائل من الآلام والأحداث المفجعة؟ والحزن الذي لا تبدو له نهاية؟ أهي الوشاية؟ أهي الفوضى التي تحتاج إلى معلم؟ ربما، ولكن هذا ليس كل شيء؟ أهو الندم أنني لم استذكر معه شيئا من ذكرياتنا في المدرسة وقد غادرناها منذ عهد بعيد، ثم انتقلنا من تلك المدينة إلى العاصمة؟ ربما ولكن يخيل إلي أننا عند الموت نعود إلى الماضي لا لشيء إلا لأننا كنا فيه أحياء، وبشكل أكيد تماما!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هل كان يغني؟

كان في المتجر الكبير، واقفا عند الحاسبة ليدفع ثمن خضار وخبز، حين فوجئ بامرأة سويدية تسبقه في صف المشترين تستدير نحوه قائلة:

ـ غناؤك جميل!

بهت وتراجع بقامته المتوسطة إلى الوراء قليلا، وكأنه ضبط متلبساً بجرم، أو فعل مؤذ مزعج للآخرين، ظل محرجاً يحدق في وجهها الفاتن رغم أنها بدت له قاربت الستين أو تجاوزتها، بل خيل إليه أن دموعاً تترقرق في عينيها! هل أفلت الغناء منه حقا؟ صحيح إنه كان في لحظة ذهول، من تلك التي يغيب فيها عن نفسه، وعما حوله ويصل لذلك القرار الذي يقول فيه لنفسه: "غن! إنس الدنيا وما فيها"، لكنه على ما يتذكر إنه في هذه اللحظة؛ لم يكن يغني. ولكن المرأة السويدية لم تكن تتوهم، أو تختلق له أمرا، ولم تسأله كعادة البعض هنا، من أي بلد أنت؟ الدموع في عينيها واضحة الآن! صادفه كثيراً في وجوده هنا منذ أكثر من عشرين عاماً أن المرأة السويدية تتعاطف وتحزن بسرعة وتغرورق عيناها بالدموع، عكس ما يقال عن برودها!

كان الغناء متنفسه وأنيسه في شقته التي يعيش فيها وحيدا، في هذه البلدة الصغيرة وسط السويد وحين يلج به حزن الغربة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المظلمة الباردة، يخرج هائماً في الشوارع أو في طرق الغابات الكثيرة المحيطة بها، سارحاً في أعماقه مرفقا وقع خطاه التائهة بغناء شجي يتواصل أحياناً لساعات، وحين يخلو له المكان ويجده فسيحاً يطلق صوته بطبقة مسموعة بعض الشيء، يبكي ويضحك مع نفسه، ويظل يتلفت محاذراً أن يسمعه أحد من المارة السويديين خاصة. فهو لم يسمع سويدياً يغني لوحده، يرى السويديين يصخبون ويضجون ويصرخون في المراقص أو الساحات العامة، وحين يشربون جماعات، أو في جلساتهم أصحاباً وأحباباً!

كان يحفظ الكثير من الأغاني القديمة يغنيها بصوت قال له كثيرون ممن سمعوه إنه جميل، بل بعضهم سأله لماذا لم تحترف الغناء؟ كان حلمه في شبابه أن يصبح مغنيا، أو عازفاً على العود، لكن انخراطه في السياسة وسجنه الطويل حطم حلمه، أحد أسباب بكائه عند الغناء أحياناً تذكره لرفاقه في السجن الذين كانوا يستعذبون غنائه، وكانت أغانيه هي آخر ما سمعوه من ألحان الدنيا قبل أن يقادوا إلى الموت! ورغم إنه الآن تجاوز السبعين لكنه لم يجد أن الغناء ينتقص من هيبته، أو قد يصمه بالخفة، خاصة إذا غنى بين عراقيين كهول أو من هم في عمره، لكنه لا يغني بين شبان يتضاحكون حين يغني.

المرأة ما تزال تلتفت لتنظر إليه، وقد اكتست نظراتها ما يشبه التوسل، وكأنها ندمت إذ قطعت غناءه، تذكر إنه كان يحرص حين يدخل محلاً أو يقترب من الناس أن يغلق فمه ويضغط على شفتيه لكي لا ينبعث أي صوت منه، وهذا ما فعله بالتأكيد حين دخل المتجر، من أين انبعث الغناء؟ هل كان قلبه السجين كطير في قفصه الصدري هو الذي يغني؟ هذا غير معقول؟ ومع ذلك قال:

ـ معذرة، إذا كنت قد أزعجتك!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قالت بصوت فيه رنة أسف:

ـ أنا التي تعتذر، قطعت غناءك!

تلمس شفتيه، كأنما ليتأكد أن الغناء لم يصدر منهما، هل انبعث من قلبه ولم يشعر؟ وسمعته هذه المرأة فقط، فكر أن هذه المرأة تستحق المزيد من غنائه، تمنى لو يجالسها ساعة ويسمعها غناءه، ستنتشي، ولو لم تفهم كلمة، ولكن من قال أنها تريد ذلك؟، هذه لحظة عابرة وحسب، أكثر من غنيت لهم نساء أو رجالا، تواروا صاروا أغاني حزينة عليك أن تلمها من هذا الصقيع الممتد حولك، تلمس صدره خشية أن تفلت كلماته أيضا، ظل ملتزماً الصمت، دفعت المرأة حسابها ومضت دون أن تلتفت، ضمه الطريق الموحش الطويل، عاد هو أيضا يسمع تلك الأغنية الملتاعة ربما هي ذاتها التي سمعتها المرأة السويدية الجميلة، تلمس فمه؛ كان مطبقا، وتلمس صدره كان ينتفض كأنه في أنفاسه الأخيرة!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

نظرة واحدة، العمر كله!

تجاوزت السبعين، واليوم عدت من منفاي الذي تجاوز الأربعين عاما، أعرف أن كل الأشياء والآمال الكبيرة قد تحطمت، عدت أبحث عن الأشياء الصغيرة التي ربما لم تتحطم لا بفعل قوتها وحسب، بل لأنهم غفلوا عنها ولم تكن أرواحهم التعيسة تدركها! في المنفى المديد كانت تطل عليَّ بين وقت وآخر ذكرى تبدد وحشتي؛ ذكرى صغيرة، أو وهم جميل كما أسميها أحيانا، تأتي من مطلع شبابي فتنعشني وأحيانا تجعلني أتحسر؛ لماذا لم أجعل واقعتها تنعطف بحياتي؟ ربما ما كنت هنا الآن! وأحياناً أفكر؛ "كلما تقدم بنا العمر، ينبثق شيء صغير، وهم، أو ذكرى أو خاطر، من الطفولة أو الصبا ليحتل الذهن ويصير محور التفكير، دون هدف أو قصد، أو مهرب منه " كانت مجرد نظرة واحدة أو إطلالة سريعة من فتاة حسناء، واقفة على سطح بيت بسيط، لكنني أراها الآن وردة أبدية فواحة في قلبي وضميري"! لا أدري إن كانت نظرة حب ضيعتها، أو نظرة عادية خاطفة لا تخصني لكنني تلقفتها كهبة سماوية في مدينتنا "أيس" المحافظة المغلقة. فأبقت ني سعيدا لأيام وأيام حالما بدنيا أخرى وزمن آخر. بقيت مشغولا بها حتى عن دراستي، اقلبها كل حين محاولا إدراك معناها والقصد منها، أكانت الفتاة الجميلة تنظر إليَّ؟ أم صوب النهر الذي كان

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ورائي، أكانت تنظر لشخص آخر؟. لم يكن أحد في الطريق الضيق المترب آنذاك، ولم تكن ثمة بيوت قبالتها يمكن أن يكون فيها ابن جيران يغازلها أو تغازله! ولا أظنها كانت تنظر الحمار المربوط دوما قبالة البيت، وقد وقفت أمامه تلك اللحظة! أكانت تقصدني؟ وماذا وجدت بي لتخصني بنظرة؟ لا أدري، للفتيات حاسة خاصة يصعب إدراكها، نظرة لهنيهة قصيرة كأنها البرق، لكنني أحيانا أراها طويلة التهمت فيها ملامحها كلها بنهم الجائع الظمآن فظل وجهها الجميل ماثلا مضيئا في قلبي كل هذه السنين الطوال!

عرفت أنها معلمة شابة في مدرسة البنات جاءت من العاصمة وسكنت عند قريبتها العجوز وزوجها الوحيدين. حاولت أكثر من مرة أن يكون في نفس المكان الذي تلقي فيه هذه النظرة الآسرة علني أحظى بنظرة أخرى أو ما هو أكثر؛ لكنني لم أرها، ثم انقطعت عن التردد على المكان وقد لاحظت بعض من سكنته يرقبونني! كانت الفتاة في آخر أيام السنة الدراسية، إذ لم تمض سوى أيام قليلة حتى عادت إلى مدينتها أو انتقلت إلى مكان آخر، ولم أعد اعرف شيئا عنها! " لو كنت ادري بهيجان هذه النظرة الساحرة آخر العمر كنت وصلت إلى العجوز، لأعرف أين ذهبت هذه الفتاة الجميلة وما جرى لها!"، أكانت ستتحقق علاقة ما؛ وقد تتطور؟

ابتعدت كثيرا عن مدينتي، ابتلعني المنفى، اخترقت قليي فيه نظرات كثيرة، نساء جادات وعابرات، أخذتني شواغل وهموم كثيرة، لكن تلك النظرة التي لم تستغرق سوى ثوان لا زالت تطل علي تنعش قلبي تارة، وتوجعه تارة أخرى!

نعم عدت إلى مدينتي الأولى، ابحث عن هذه النظرة لدي إحساس عميق أنها لا تزال عالقة في الهواء كزهرة أو قطرة مطر، رغم تقدمي في العمر أستطيع أن لا أنسى! أراد ابن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خالتي الذي انزل عنده أن يرافقني عند خروجي؛ لكنني طلبت منه أن يتركني اخرج لوحدي، ولم أفصح له عن غايتي! أأقول له إنني خرجت أبحث عن نظرة ومضت ولم تنطفئ في قلبي منذ عهد بعيد؟ أأقول له أنني خرجت أبحث عن زهرة ألقيت علي قبل أربعين عاما ولم تجف؛ بل لازالت نضرة يانعة كأنها في غصنها؟ يجب أن أقف عند ذلك البيت الذي تلقيت من شرفته هدية السماء التي جعلتني أحس بسمو الأرض، وفتنتها!

ظننت أنني أعرف الطريق إلى البيت. لكنني وجدت نفسي تائها في طرقات أزيلت وأخرى شقت من جديد. بيوت قامت حديثا، وأخرى قديمة اختفت! ضللت طريقي وابتعدت عن المكان القائم في مخيلتي، سألت أحد المارة:

ـ حسب ما أذكر كان هنا صف بيوت هنا؟

ـ نعم وقد أزالوه ليفتحوا الكورنيش، لكن حتى الآن لا شيء من ذلك!

سرت قليلا وتوقفت عند بقعة، وفجأة عرفت مكان البيت، جدران مهدمة أمامها أكوام حجارة ونفابات، أهذا كل ما تبقى من ذلك البيت الذي توهج في قلبي أكثر من نصف قرن؟ النهر، صار ضحلا ضيقا، كان في ذلك اليوم يتدفق واسعا، مساحة السماء فوق البيت ضيقة معتمة ليست رحيبة كذي قبل عندما انهال ذلك الشعاع، لماذا لم أمسك يومها بذلك الشعاع؟ ما أذهلني وجعلني لا أدري أأبكي أم أضحك أن ثمة حماراً مربوطا هناك أيضا وفي ذات المكان، وقد صرت أمامه أيضا وأنا انظر إلى أطلال ذلك البيت الذي تمنيت لو أستطيع أن أعيد بناءه وبتلك الشناشيل التي منحتني كل هذا النور والهناء!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الحياة مرحة أحيانا!

يطيب لي السير متمهلا في هذا الشارع الجانبي من المدينة السويدية والذي لا أعرف اسمه، لكنني أسميته شارع الربيع لكثر ما يتفتح على جانبيه من زهور الشجر والأرض في حدائق البيوت بعد الثلوج الكثيرة، وما يتضوع من عبير وظلال نديات في أجوائه بعد الثلوج الكثيفة والجليد الذي يغطي الأرض ويجعل السير عليما محفوفا بخطر السقوط. وجدتني أسير خلف رجل يقود كلبا. فجأة صادفنا أنا والرجل والكلب مضيق على الشارع، ولافتة كتب عليها أن هناك حفريات وعم لا، كانوا يمدون أسلاك الإنترنيت، ولم يكن بالإمكان أن يمر أكثر من شخص واحد على السقالات الخشبية! لا أدري ماذا دهى الكلب ورفع ساقه وأخذ يتبول جنب حفر الكابلات، توقف صاحبه له كأي سويدي يحترم كلبه كثيرا! لم استطع اجتيازهما فتوقفت خلفه منتظرا! صرنا رجلين ينتظران كلبا يتبول ويتغوط، نظرت خلفي، كان ثمة رجلان توقفا أيضا، تبعتهما امرأة ورجل. موكب بشري ينتظر كلبا يقضي حاجته! تكرم الكلب وانتهى من حاجاته التي ظننتها ستطول كمصائبنا الأخرى، انحنى الرجل وحمل بكيس صغير أسود ما ألقاه الكلب! وانطلق موكبنا، سرنا قليلا بانتظام وحذر على الخشب الضيق، ثم عاد شارع الربيع يبسط حدائقه وعطوره وظلاله، لكنني بقيت أفكر، ربما الرجل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الرابع والمرأة والرجل السادس لا يعرفون حتى الآن لماذا توقف موكبنا، أو سيرنا! خطر لي أن أسأل أحدهم ولا يزالون يسيرون في طريقي، لكنني أحجمت؛ إذ كأنني سمعت صوتا في داخلي هاتفا، الحياة مرحة أحيانا، أو لا مبالية، والأفضل أن لا نعرف كل شيء!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القبعة!

ليس من عادتي أن ألبس قبعة، أو أضع غطاء على رأسي، لكن الهجير هنا لاهب حارق، كما إن برد الشتاء هنا يجعل قحف الرأس قطعة من جليد.

وآخر شعرة بيضاء غادرت رأسي قبل الشعرتين المتبقيتين خدشت مرآتي وتركت فيها ما يشبه الجرح، فأنا رجل مسن تجاوزت السبعين، وشعرة الرأس الواحدة عنده لها معنى فكيف بشعرتين!

دخلت دكان بائع القبعات. تحيرت بين القبعات وأغطية الرأس حيرتي يوم فكرت باختيار امرأة أقضي معها بقية العمر الذي عشته أعزب، ثم عدلت عن الفكرة كلها! ثمة قبعة على شكل مخروط قد تل حق بي صفة المهرج، ولا طاقة لي على التهريج رغم أن بعض التهريج حكمة! قبعة مدورة قد تظهرني كرجل دين. وأنا أختلف جذريا مع رجال الدين. أختار قبعة لها شكل ق ارب مقلوب قد تذكر بأفندية بغداد الذين اختفوا كما اختفت معهم بيوتهم وأغانيهم وقواربهم، وأن يكون على رأسي ما يذكر بهم سيجعلني موضع سخرية وضحك الكثيرين!

قبعة خاكية تظهرني عسكريا، وأنا قبل تقاعدي كنت موظفا مدنيا، وأتحاشى أية علاقة مع العسكر، بل وأتوجس منهم حد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

النفور والقطيعة! قبعة مزركشة تظهرني كصيرفي عملة في سوق المدينة الكبير، وأنا الذي لا تستقر النقود في جيبي والله وحده يعلم سبيلها في البر والإحسان. أختار يشماغاً وعقالا سأبدو رجلا شعبيا وأنا لست كذلك، حيرتي أفزعتني قبل أن يضجر صاحب المحل فيتركني بعد أن تعب من عرض القبعات وأغطية الرأس علي متحدثا بإسهاب عن كل منها مادحا، مخفضا السعر، مع ذلك لم اشتر. خرجت متلمسا صلعتي والشعرتين العزيزتين، فهما آخر ما يكرني بفتوتي وأخشى أن أكون فقدتهما أيضا لكثرة ما وضعت ورفعت عليها من قبعات وأغطية رأس أمام المرآة. لفحتني شمس الطريق على الفور كأنها تؤنبني على ترددي وحيرتي!

فتحت دفتي كتابي فوق رأسي، وسرت تحت الهجير مناحراً ريحاً أخذت تهب فجأة تعج بالغبار وما حوت الأرض من قش وقصاصات ورق، مقنعا نفسي إنني والكتاب نفكر معا في هذا الهجير والناس نائمين في قيلولتهم أو تحت قبعاتهم!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كلاب الغجر!

ينصبون خيامهم في ظاهر مدينتنا "أيس"، بنعومة وخفة، ما يجعلها أشبه بغيوم تحط على الأرض، كأنهم يجلبون بناتهم من جنة السماء أيضا. الصديق الذي اقتادني إليهم قال لي:

ـ احذر! "كلاب الغجر؛ تعض الضيوف وأهلها والجيران"

ـ لكنهم طيبون كما رأيتهم يتجولون في المدينة، ولا يمكن لكلابهم أن تكون شرسة وقحة!

ـ ستراهم، وكلابهم عن قرب أكثر!

رغم إن كلابهم نبحت علينا ونحن نقترب من خيامهم السود، في عتمة المساء، لكنهم أسكتوها، وجدتها دائرة بيننا وتحتف بي مرحبة وتكاد تصافحني، ويمنحني بريق عيونها بين نور الفوانيس الواهن ضوء أمسية غجرية منعشة! نظرت إلى صاحبي منتصرا. أجلسونا على بسط بدوية ملونة مفروشة على الأرض. مصيبتي إنني وقعت بحب إحدى بناتهم! كانت في العشرين رشيقة سمراء داكنة كأنها غصن أبنوس مصقول! كانت بعينين دائبتي اللهب، إذا أغمضت واحدة، اشتعلت الأخرى! حنانها يسري كنسمة عطرة، يظل حاضرا حتى لو انشغلت تداري هذا وتجامل ذاك. والغجرية تكتفي مع الزبون بالرقص والسماح له بحل ضفائر شعرها بسعر محدد، واللمسات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخفيفة بسعر آخر، ولا تعطي نفسها إلا بموثق وعقد وشروط يكون فيها الوالدان شهودا. لذلك رفضوا أن يكون حبنا رومانسيا حالما يشغلها عنهم حتى لو وعدتها جادا بالزواج، قال أبوها:

ـ لا أنت ستصير غجريا، ولا هي ستصير من بنات المدينة!

فصدمت وتعذبت، قال لي صديقي مواسيا، أو لائما بلغته وكان شاعرا مرحا:

ـ أيها الأبله، البنت عندهم أغلى من بقرة هولندية، فهي تدر لبنها ذهبا في جيوبهم!

لم يغلق أهلها خيامهم بوجهي ولم يحرموني من رقصها ولم تنبح عليَّ كلابهم قادما أو ذاهبا، لكنهم منعوا أية أحاديث حميمة هامسة بين وبين حبيبتي لا وجود لها في قائمة أسعارهم!

رحلوا فجأة. ورحلت أنا من البلاد إلى دنيا أخرى! مر نصف قرن من الزمان، أو ألف قرن في الحقيقة!

عدت إلى بلدي بعد أهوال وتغير أحوال، وعرفت أن النظام السابق سمح لهم أن يستبدلوا خيامهم ببيوت حديثة في ضواحي المدن، ربما كلمسة إنسانية مستغربة منه أو لأن بعض رجالاته قد تزوجوا سرا بعض نسائهم! بعض الغجر صاروا أصحاب دور وقصور ومصالح وثروات، وقتل بعضهم في نيران الحروب أو هاجروا! بعد سقوط النظام أفتى بعض رجال الدين المتنفذين أن بيوتهم وثرواتهم قد بنيت من الرقص والغناء فهي حرام ومفسدة، فقاموا بالاستيلاء عليها بسلاح أتباعهم، وبينما هاجر معظم الغجر وعادوا لحياة التشرد استطاع بعض رجالهم ونسائهم التسلل إلى جماعات رجال الدين وأحزابهم أو أسرة نومهم! كأن رائحة الأرض السمراء الساخنة أحيت في قلبي طيف فتاتي الغجرية، حب الشباب النقي المحبط! فحين عرفت بوجود ملهى في بغداد ترقص فيه غجريات دهشت وسارعت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في الدخول إليها ممنيا النفس بآخر أحلام الدنيا، واستعادة ذكرى طواها الماضي الطويل ومستحيلاته الكثيرة. ورأيتها! البنت الغجرية نفسها، لا زالت في العشرين غضة يانعة، جميلة جذابة كما كانت، لكنني لست أنا؛ عجوز تخطى السبعين، ونقش الدهر حكاياته على الوجه واليدين واللسان! ومع ذلك عجبت كيف لم تعرفني؟ تذكرت أن فلسفة الغجر تقول أنهم ومن يحبونهم لا يشيخون، ولا يموتون، ولا يفقدون جمالهم مهما عصفت بهم الأيام، وأنا قد هرمت، وهذا معناه أنني لم أكن أحبهم حقا، من يحب الغجر لا يشيخ، ولا يموت يا لها من وصفة سهلة، لماذا لم أحبهم أكثر؟ لم أطر مع تلك الفتاة إلى الجنة التي أتت منها؟ هكذا حدثت نفسي، وأقنعتها مواسيا!

كانت دون أهلها طبعا، بعضهم ماتوا مخالفين أحلامهم، بعضهم لم يموتوا مصدقين أحلامهم وإن لم يظلوا على خيامهم ورحلاتهم القصيرة المبهجة بين المدن. ربما تحت تأثير كأس احتسيته على عجل رأيت حول الراقصة كلابا غير تلك الكلاب القديمة، الآن اقرب للذئاب أو الضباع والنمور. أحسست أن عيونهم تحف بها، وترقبني ويتطاير منها شرر كذاك الذي يخرج من بنادق الصيادين! يتهامسون وينظرون إلىّ، كأنهم يوشكون أن ينقضوا علي.

عرفت من حديث دار على مائدة مجاورة أنهم مسلحون جاءوا لحراسة شخص بمنصب كبير في الدولة مغرم بها! لم أر وجهه، كان أمامنا موليا ظهره الضخم لنا، رأيت رأسه المكور المُطعّج الأصلع ورقبته الغليظة غائصة بين كتفين عريضين. وتذكرت؛ هذه هي الكلاب التي عناها صديقي قبل سنين وسنين: "تعض الضيوف وأهلها والجيران". لو كان الآن معي لأقر بذلك، لكن المسكين أكلته أيام غيابي، كلاب أخرى، غير كلاب الغجر!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فجأة هجم علي عذاب زمان طويل، مكتظ بعواء الذئاب ونباح الكلاب ورقص الراقصات والراقصين، وصياح باعة ومشترين، حتى طغت على الموسيقى الصاخبة في الملهى، ولم أعد أستطيع البقاء!

ألقيت على البنت السمراء الجميلة الراقصة نظرة أخيرة خيل إلي أنها تلقفتها كوردة ذابلة! وخرجت أجر خطاي، وأتلفت ورائي خشية أن يكون أحد كلابهم يلاحقني!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

طيور مهددة بالانقراض!

أعرفها تلك الطيور الآبدة، تأتينا صباحا ومع الغروب، متموجة الألوان مرتدية قطعا من قوس قزح! لا تستطيع الطيور الوافدة بكل ما تحمل من جمال أن تطمس جمالها وفتنتها! يسمونها الآبدة وهذا اعتراف بأنها بدأت معنا الأبدية وسترافقنا إلى نهايتا التي لا تدرك! رغم دهور طويلة أثقلت أجنحتها تبقى محلقة تنشر الفتها وتغاريدها في البساتين والحدائق.

أصواتها شجية تنبعث من حناجر مغنين طوتهم الأرض قبل دهور، نايات وأعواد وطبول ص غيرة تعزف بشجن ورقة غم عصف الريح وهزيم الرعد!

أعرفها، قلوبها الصغيرة تنطوي على رحابة السماء، عمق الفجر، ترى الأفق أبعد من حدود البلاد، وما تشير إليه فنارات ومآذن، وأبراج كنائس، لكنها متشبثة بسعف النخيل وأعالي أشجار التوت!!

طيور لها صلابتها كأنها لم تخرج من قشور بيض، ولا من تحت ريش متعدد الألوان، أكثر من ريش طواويس حقيقة أو مرسومة في كتب الأساطير!

تأتي من بين بيوتنا الطينية، من وراء أسيجة قصور عالية، من أكواخ ووديان سخية كأرحام نساء طيبات صابرات!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ثمة خفافيش، في غفلة من البلاد، حاولت أن تجد لها أوكاراً في سقوف المساجد وأبراج الكنائس وتتسيد الليل؛ مطاردة تلك الطيور الجميلة، لكنها فشلت وتوارت!

في يوم عابس مكفهر راحت القذائف تتساقط، كيف امتلكت تلك

الأجسام الصغيرة تلك القوة التدميرية؟ ولماذا استهدفت هذه الطيور فراحت تتساقط صرعى، بين الأبراج والقصور والمحلات المزدحمة؟ لا مناص لها من ذلك؛ الموت أو الرحيل! ماذا تبقى منها؟ ثمة إعلان دولي يقول أنها مهددة بالانقراض أو أنها على طريق الفناء والتلاشي؟ أنا وقفت على السطح آويت بعضها، أعرف أن الدمار ينتشر في كل مكان، صارت المصيبة أكبر مني ومن الأرض والفضاء!

كانت الطيور الكسيرة الجناح، تحاول عبثا أن تطير، لكنها تشير بأعناقها إلى اتجاه، أثار استغرابي! ثمة غيوم هائلة من الغبار قادمة من جهة الصحراء وهذه الطيور تريد أن ترتمي في أحضانها، أتعرف مثلنا الانتحار؟ سرعان ما لفنا الغبار الكثيف معاً شعرت أنني احلق معها في هذا السديم العميق الطويل وأنا أهمس لنفسي، لن نموت، لن نرحل مرة أخرى، سنحتضن الطيور الوافدة أيضا، صحوت على هرج في الشارع؛ كانوا يزفون عروسا، أبهذا الجو الخانق المغبر يتزوجون؟ قرع طبول وأصوات أبواق سيارات، يا للعنة! إنهم يطلقون الرصاص أيضا، وأنا عدت احلق مع طي ورنا الآبدة وألوح لأهل الزفة كالمجنون: كفى! كفى! وهم لا يسمعون؛ يطلقون الرصاص باتجاهنا موجة لاهبة تلو أخرى، والطيور حولي تحتف بي تحميني وتحملني معها إلى غيمة كبيرة من الغبار كأن الصحراء كلها قادمة إلينا!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مقهى العطّاسين!

جدي هو الذي قادني إلى مقهى العطّاسين! كان يغيب عن بيته الذي فيه جدتي وبناته الثلاث بينهن أمي وأنا طفلها الوحيد لفترات طويلة، تمتد لأشهر وحتى لسنوات! كان قد أتلف كل ما ورثه عن أسلافه من بساتين وأملاك على عشيقاته ومجالس سكره ولهوه، ولا يعود إلى بيته الذي صار يتهدم ألا حين يلم به مرض أو عوز أو ندم لا يلبث أن يركله ويعاود سيرته الأولى! وحين يعود كانت جدتي وبناتها سرعان ما يغفرن له ويقبلن عليه بحنان ورفق لكنه يظل واجماً مثل ضيف طارئ حزين مذعور، ثم فجأة يمسك يدي ويأخذني أنا الصبي دون التاسعة، ناحل الجسد إلى مقهى صغير في مدينتنا أيس يدعى مقهى "فرج الله"! والذي صرت أسميه مقهى العطاسين ذلك إن كل الذين يجلسون فيه هم في حالة عطّاس دائم، ولا أدري لماذا يصطحبني، ربما لكي يظهر للناس أنه عكس ما عرف عنه ملتزم عائلته محب لها! ما أن ندخل المقهى حتى تواجهنا موجة عطاس عالية ورذاذ يتطاير من أنوف وأفواه رجال كهول وشيوخ جالسين على تخوت عارية إلا من حصير خوص مهترئة. كان الجالسون عادة بثياب حائلة رثة حاسري الرؤوس أو يعتمرون عقالاً أو لفائف من قماش أبيض مائل للصفرة! بأيديهم حقق معدنية صغيرة تشبه ساعات الجيب، تحوى تبغا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مطحونا أو غباره، يسمونه النشوق يدسون قليلا ا منه في مناخيرهم ليهيجوا أغشيتها فينبرون في عطاس شديد كأنهم يدخلون به مباراة غريبة تدهشني وتجعلني أتلفت بينهم: ما أن ينتهي أحدهم من عطاسه حتى يبادره الآخرون بما يشبه النشيد: " يرحمكم الله"! لم ألبث أن صرت أعطس مثلهم وتدمع عيناي ربما من غبار التبغ المتطاير أو بالإيحاء! أحيانا تنطلق منهم عبارة في السياسة عن مظاهرات في بغداد، أو حب بعضهم للملك، وكره آخر له، وعن سقوط حكومة وقيام أخرى أو شيئا عن فلسطين تنتهي كلها بموجات عطاس و"يرحمكم الله!"وأجدهم يقصفونني بالكثير من تلك الشظايا المتطايرة من أفواههم وأنوفهم، فتسيل دموعي، وأود مغادرة المقهى لكني أخشى أن ينهرني جدي! سمعت أحدهم:

ـ يقولون إن العطاس هو احتضار، محاولة الروح للخروج من الجسد ثم إذا انتهى بسلام فهو ولادة جديدة!

ولم يعقب عليه أحد منهم سوى بمزيد من العطاس!

كنت أرقبهم مندهشا، أقلب نظراتي متلفتاً بينهم، عيونهم دامعة كأنهم في بكاء أو احتضار طويل عسير، أجسامهم هزيلة ووجوههم شاحبة! وأسمع أحدهم يقول عابسا " لا عمل لدينا ولا مورد عيش، أنبقى نعطس ونعطس فقط ونرجو رحمة الله!" ويرد آخر ضاحكا: " ها هو غبار التبغ يحل المشكلة!" وتعطس جماعة في زاوية؛ فيتصايحون: يرحمكم الله! ويحيرني عطاسهم أهو كله من غبار التبغ؟ أم أن أجسادهم تمسك بأرواحهم التي تريد أن تنطلق بعيداً كما قال أحدهم قبل قليل؟

كنت أرى جدي بينهم وقد أخذت دموعه تسيل على وجهه الشاحب الذاوي الآن؛ وقد كان قويا وسيما في شبابه كما يقولون، ولا أعرف أكان يبكي حظه وحظنا العاثر معه أم هو فقط ذلك التبغ السحري المفعول؟ أم أن روحه تريد أن تخرج

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من بدنه فأحس بخوف وحزن!

كان الطريق الضيق الملتوي بين بيتنا والمقهى طافحاً بنور الغروب وكان الشفق، جرحاً كبيراً قان يقف بيني وبينه نازفا، كانت أسئلة كثيرة تضج في صدري وتظل محتبسة لا أجرأ أن أوجهها له، ربما كنت أريد أن أسأله لماذا تهجر جدتي التي تحبك وتهجرنا، لماذا ضيعت كل ما تملك في اللهو ودمرت العائلة، لكن وجدت أن ما خرج من شفتي المرتجفتين سؤال أبله:

ـ لماذا لا نبقى نعطس في البيت، وليس في المقهى؟

أخذ يتأملني، كأنه لمس شيئاً مريباً في كلماتي وسحنة وجهي المرتجف بلون الغروب، فرد بلهجة أحسستها مرتجفة أيضا:

ـ ملعون.. صرت تفتهم!

ذلك اليوم ما أن جلس في المقهى وأدخل يده في جيبه حتى صاح بي:

ـ نسيت حق النشوق، اذهب إلى البيت وأجلبه بسرعة!

قالها بلهجة زاجرة كأنه يؤنبني أو يحاسبني على ذنب لي أو على ذنوبه هو!

أسرعت راكضا إلى البيت، راحت جدتي تدور مرتبكة وجلة باحثة بين أشيائه القلية التي لديها منه، أخيرا وجدته في ثوب قديم له، كان حقا معدنيا فضي اللون بدأ طلاؤه يتساقط. ركضت به، اعترضني كلب سائب جائع في الطريق وكاد ينقض علي فأخرني قليلا وأنا أراوغه لاهثا مثله؛ لكنني اقتربت من المقهى، فلمحت عند بابها لمة أناس أصواتهم تصلني موحدة بنشيد "ليرحمه الله" فانقبض قلبي وتوجس، كان جدي بين أيديهم جثة هامدة سمعت أحدهم يقول: " رحم به ربه فأخذ روحه في أول عطسة!، "بكيت وشعرت بذنب كبير؛ أكان تأخري في جلب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نشوقه سببا في موته، ولكن الكلب السائب الذي اعترضني هو من أخرني، ولأيام بل سنوات لاحقة اسمع جدتي التي نالها منه أذى كبير كلما ذكره أحد تقول " ليرحمه الله، لم يتعذب في موته، عطسة واحدة فقط وخرجت روحه إلى بارئها " فأتذكر مراوغتي لذلك الكلب ثم تأخذني نوبة عطاس وأحسني في مقهى العطاسين أستنشق ذلك الغبار دامع العينين!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الوداع الأخير!

نزل حاجز سكة القطار الذي يقطع الطريق العام فجأة كما السيف الهائل، فتوقف المارة وكانوا كثيرين، كنت مستعجلا، زوجتي وأطفالي في البيت الآن ينتظرونني، لم نجد رغيف خبز لفطورنا فخرجت في هذا الصباح المشرق المغري بالتجوال لأجلب بعض الأرغفة، اشتريت معها أطعمة بسيطة فالجيب الخاوي يقطع الأمعاء الخاوية، وهم الآن يتضورون جوعا! كان الحاجز حديديا محكما، على كل جانب منه ثمة عمود يحمل مصباحا يومض بالأحمر يحذر من محاولة اختراقه، جاءت مجموعة من البدو يسوقون جمالا فتوقفوا، وحين نبحت كلابهم أسكتوها، م زارعون يحملون على دوابهم سوابل من الخضر والفاكهة، يتقدمهم سرب من الخراف، توقفوا أيضا دون أن يخفت لغطهم، مجموعة من الغجر توقفت في الجهة المقابلة، وحين طال انتظارهم أخرجوا درابكهم وكمنجاتهم البدائية وراحوا يعزفون ويغنون، ثمة فتيات منهم رحن يرقصن ويحركن مؤخرتهن بأوضاع جنسية مكشوفة، كثيرون على الجهتين صاروا يضحكون ويعلقون! طال وقوفنا ننتظر القطار يمر ويرفع هذا الحاجز الثقيل فنمر، تعبت أعناقنا ونحن ننظر في يسمى نهاية النفق، سمعت أحدهم يقول: م ا هذا؟ ألا يفكرون أن لدينا مشاغلنا، رد عليه آخر هامساً مهدئاً كأنه يحذره،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوضع صعب، والبلاد في موقف صعب، علينا أن نتفهم الأمور! ثمة امرأة حامل كأنها تقارب المخاض، تعبت من الوقوف فعثرت على حجر عريض وجلست عليه لاهثة تمسك صدغها، جاءت من الجهة المقابلة مظاهرة صغيرة ترفع لافتات وأعلاما، فتوقفت إلى جانب الغجر، وبعضهم ألقى ما في يده من شعارات وراحت يتحدث مع الفتيات الغجريات، جاءنا جموع من الناس يتحدثون لغات أخرى لا أفهمها بعضهم كان يتضاحك فرحا مما أثار شكي، آخرون منهم كانوا واجمين قلقين، حشد هائل من البشر على الجانبين صاروا محجوزون لا يستطيعون الوصول إلى بيوتهم أو أعمالهم، وكل ما خرجوا من أجله صار ينتظرهم هناك لمدى مجهول تماما، هل سيأتي القطار ونعبر أم إنه سيبقى لسبب غير معروف متوقفا، أو عليه أن يقطع مسافة طويلة لكي يصل إلينا، أي مجنون هذا الذي انزل الحاجز، أكان لا يعرف بموعد وصول القطار إلى هنا؟ أم إنه يعرف وتعمد حجزنا هذا السجن الجماعي؟ انتظرنا وانتظرنا، ثم صرنا نقطع الوقت في التخمين من أية جهة سيأتي القطار؟ هذا يقول من الشرق، وآخر يقول من الغرب، كنت اردد مع نفسي ليأت القطار من الجحيم المهم أن نعبر، أريد أن أصل البيت ويأكل أطفالي فقد تعدينا الظهيرة وقاربنا الغروب! وأخيرا جاء القطار يسبقه هديره واصطكاك السكة الصدئة المخلعة! جاء كما توقع كثيرون من جهة الغرب كان قطار بضائع مفتوحا رصت عليه دبابات ومدرعات ومصفحات ومدافع وصناديق عتاد، ثمة ضباط متجهمون يقفون بينها نظراتهم تكاد تثقب صدورنا، كان القطار يسير بطيئا ثمة من راح يلوح له، ثمة من ابتسم أو ضحك ثم من بدا لشدة حزنه موشكا على البكاء، تعالى عزف الغجر ورقصهم، وكلاب البدو عادت للنباح، والخراف ثغت كأنها تقاد للذبح، وأهل المظاهرة اعتراهم الوجوم فأنزلوا لافتاتهم وأعلامهم، اخذ القطار وقتا طويلا ليمر، لمحت عند

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العربة الأخيرة جنديا متهدل القيافة حزينا متعبا كأنه هو الوحيد مثلنا لا يعرف وجهة القطار، كان ينظر إلينا باستغراب ثم أخذ يلوح بيده السمراء عاليا، كأنه يلقي علينا الوداع الأخير!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مدينة السهام

خرجنا من بيوتنا مبكرين لكي لا نتأخر عن أعمالنا، فالويل الويل لمن يتأخر لحظة وبلادنا على أبواب حرب كما نسمع من الناس والإذاعات البعيدة.

رأينا على أرض الطرقات سهاماً مرسومة بالصبغ الأخضر، وثمة كلمات على الجدران اتبعوا السهام، وعقوبة المخالفين كالعادة هي القتل رميا بالرصاص! أعوان الرئيس يقولون، الرئيس رحيم بنا كعادته فلم يجعل الموت بالمشنقة، بل رميا بالرصاص من أجل راحة الميت. لكن في الواقع كثيرين ينفذ بهم الموت بالمشنقة، أو بأنياب الكلاب الجائعة، وأحيانا يلقون بأحواض تفور بالحوامض الحارقة الآكلة!

كيف لا نسير مع السهام ساكتين مهطعين؟ أين ما تفضي بنا، علينا أن نقبل، بل يجب أن نظهر على وجوهنا علامات الرضا والارتياح ولا حركة أخرى على الشفاه، كيف لا نقول أن أمر الرئيس كأمر الله يجب قبوله مقرين بحكمته ورحمته؟

الجنود يرقبوننا بانتباه وتحفز، كل من يسير عكس السهم الذي خرج به من عتبة بيته يقتادونه إلى الجدار، يعلق على مشنقة جدارية أو يرمى بصلية رصاص ثم تتغطى الأشلاء بالصمت المطبق. رغم أن رصاصة واحدة تكفي، بل صار الموت دون مشنقة أو رصاص، مجرد اقتياد الرجل أو المرأة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى الجدار وتصوب، الرشاشات يتوقف القلب، صارت قلوبنا تساعدهم على الاقتصاد بالرصاص!

ومع ذلك كثيرون يخرجون عن اتجاه السهم لا عصيانا أو تمردا بل لأن شبكة السهام صارت كثيرة متشابكة معقدة، والإبصار صار ضعيفا، فتتصادم الرؤوس خوفا لا تمردا! فمن يخرج من مكان مختلف لا بد أن يتقاطع مع من يخرج من مكان آخر رغم أنهما باتجاه واحد، هكذا بدأنا نتعرف على قوانين في الهندسة، ولكن علينا ن نغير قوانين الهندسة والفيزياء فقط لكي لا تتعارض مع قانون الرئيس!

درجنا على ذلك زمنا طويلا صحونا ذات يوم لنجد السهام قد تغير اتجاهها بل قلبت رأساً على عقب، وجدت أرجلنا ورؤوسنا صعوبة في الاستدارة لكننا سرنا وسرنا وفق أسهمهم وويل لمن يتفوه بكلمة واحدة.

كل يوم نتوقع أن تتبدل اتجاهات السهام، صرنا نسمع حين يجن الليل ثعالب تعوي، اسود تزأر من بعيد، وقع أقدام فيلة، لكننا رأينا بأم أعيننا قردة تتسلق أشجار الطرقات والبيوت تأكل الثمار وتلقي علينا برازها علينا ويجب أن نسكت ثمة من أخبرنا أنها تأتي من حدائق الرئيس لتتفسح بين بيوتنا وأزقتنا! سمعنا صوت الرئيس ذات يوم وكنا لم نسمع صوته ولم نر صورته منذ سنوات طويلة، كان يقول: أتابع سيركم إنه رائع ومطمئن ويقربنا من أهدافنا العظيمة، زمنا طويلة سرنا وفق السهام حتى أن أحذيتنا مهما بليت وتهرأت حفظت في ذاكرتها ألوان السهام واتجاهاتها وهيهات تحيد عنها، حتى الآن لم نسأل بعضنا ولا أنفسنا إلى أين تمضي بنا هذه السهام؟ كل ما نعرفه أننا نسير ونسير على هذه السهام لا نحيد عنها قيد أنملة ثم نتوف حين ترتطم جباهنا بسور المدينة الضخم المبني من صخور الجبال الشاهقة البعيدة!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حامل إبريق الكنيف سلطاناً

عندما كان الخليفة العباسي المسترشد بالله يسير متجها إلى الكنيف ليؤدي وضوؤه، يسبقه خادمه مرتاض العنقري حاملا إبريقه؛ تذكر ما نقله له رئيس مجلس حكمائه عن تذمر أهل ذلك البلد من حكمه واستهانتهم بمقامه العالي وطعنهم باسمه بل وكفرهم بالله ونبيه، نتيجة لمعاناتهم كما قالوا من رجال الدين الذين تبوؤوا المناصب، ونالوا الثروات والسلطات العليا، وساموهم المظالم، وأفانين الكذب والنفاق محتمين برفعهم اسم الخليفة على منابر المساجد والدعاء له بالقوة وطول العمر! فقرر أن يقتدي بما فعله جده هارون الرشيد مع أهل مصر حين ولى الخصي بحامل إبريقه إلى الكنيف والياً عليهم في محاولة منه لإهانتهم وزجرهم، بعد أن فعلوا كذلك مبدين تذمرهم وتململهم عليه، فنادى مرتاض قائلا:

ـ عينتك سلطاناً على أحد بلداني الكبيرة!

لم يشك لحظة أن الخليفة جل قدره؛ يمزح معه كعادته أحياناً فقال:

ـ يا مولاي ها أنا سلطان على كنيفك ومرحاضك، وهذا شرف عظيم لي!

ـ لا، سأرسلك إلى كنيف ومرحاض آخر كبير لتحكمه بقوة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وقسوة، فمن يكفر بالله والنبي ويشتمني مهما كانت الأسباب؛ لا بد أنه في كنيف كبير وليس في بلد غني جميل، واعلم أنك لست واليا وحسب؛ بل سلطانا لك أن تجز رقاب المارقين دون الرجوع إلي!

ارتج الأمر على العنقري ولاحظ غضب الخليفة ولهجته الجادة فآثر الصمت ريثما ينجلي له الأمر اليوم أو غدا؛ فاكتفى بالقول:

ـ الأمر أمرك يا مولاي، لو أمرتني أن القي نفسي في النار لفعلت!

لم يصدق كاتب الديوان ما يسمعه من الخليفة، وهو يملي عليه قراره بتنصيب العنقري والياً على ذلك البلد الكبير الغني بثرواته وموقعه، متذكرا قرار الرشيد بتولية الخصيب على مصر، وكيف انتهى إلى فشل ذريع، وفاجعة قاسية، لكنه لا يسعه سوى أن يمضي بصياغة هذا الأمر الديواني كما أملاه الخليفة عليه:

ـ ولكي يعرف أهل تلك البلاد مدى استهانتي واحتقاري لهم ويعلم القاصي والداني بذلك. دَوّنْ أن العنقري "هو منظف الكنيف، وحامل إبريقنا إليه"!

أكمل كاتب الديوان خطه على جلد ضبع كما أمر الخليفة وختمه مؤرخا في سنة 519 للهجرة حوالي عام 1125 ميلادية حين بلغ رئيس مجلس الحكماء بالقرار قال:

ـ هذا عين الصواب والحكمة، وحقاً إذا أردت أن تعاقب شعباً أو تحطمه؛ اجعل وضيعه رفيعاً، ورفيعه وضيعاً، وكفى الله المؤمنين شر القتال!

استدركه أحد أعضاء مجلسه قائلا:

ـ ولكن العمل أي عمل لا يحط من قدر المرء، فكل عمل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضروري هو شرف وعز، ما يرفع المرء أو يحطه هي أخلاقه وسلوكه ومنطقه!

رد رئيس مجلس الحكماء كأنه يزجره:

ـ هكذا رأى الأمر مولانا الخليفة!

عندما بلّغوا العنقري بصدور قرار الخليفة مدوناً على جلد ضبع، وإن عليه أن يهيئ نفسه للسفر في اليوم التالي مع فصائل طويلة من العساكر؛ أغمي عليه، فهو كان يعرف قصة الخصيب الذي كان مثله حامل إبريق الخليفة هارون الرشيد والمصيبة التي حلت به، فلم يفق إلا مساء معتقداً أنه في كابوس ثقيل! وقد سمعه أحد أصحابه يقول:

ـ تا الله عندي رائحة الكنيف ومرحاضه أطيب من رائحة الحكم!

لكنه كتم ذلك وأوصاه أن لا يقولها ثانية؛ خشية أن يطيح الخليفة برأسه، أو بسمل عينيه كما حصل للخصيب في عهد ليس ببعيد جد ا! تكاثر أصحاب العنقري على الفور وجاءوا يهنئونه ويعرضون عليه خدماتهم ويلمحون إلى ما يتطلعون إليه من مناصب ومكاسب، مؤكدين له أن الم همة لا تقتضي أن يتردد حيالها، أو يغمى عليه؛ فهي ليست بهذا السوء بل مدعاة للفرح والأمل بخير وفير، فهو سيعيش في قصر باذخ تحت إمرته جيش كبير وخزينة عامرة وبأبهة وعظمة، ولن يحمل بعد الآن إبريق كنيف يعج بالروائح النتنة بل سيكون حوله خدم وحشم يحملون له إبريقه وثيابه وصولجانه بينما يجلس على فرش وثيرة تحفه الجواري والوزراء والمستشارون!

وبينما توقع كثيرون أن حامل إبريق الكنيف لن يستطيع حمل صولجان الحكم وأختامه وإن مصيره سيكون نفس مصير الخصيب الذي ولاه الخليفة على حكم مصر فحكمها باللطف

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

واللين وأحبه أهلها، لكن مصيبته أنه وقع تحت هوس أن يزيل عن نفسه عقدة ذله وهوانه القديم كمنظف كنيف ومراحيض قصر الخلافة فصار يستجلب الشعراء والكتاب يمدحونه بإطناب فيجزل عليهم العطايا والهدايا من بيت مال المسلمين، أي أنه صار فاسداً كما نقول بلغة اليوم متلاعبا بالمال العام لصالحه وبث الدعاية لنفسه، حتى إن أبا نؤاس شد الرحال إليه مادحا إياه بقصيدة شهيرة مخاطبا فيها عشيقته:

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير فتى يفتدي حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

وقد سمع الخليفة هارون بتبذيره المال العام، ولطفه مع من بعثه للاستهانة بهم، ولطف أهل مصر به؛ فعزله وعاقبه بسمل عينيه، وتركه على الرصيف يتسول لقمته! وبقية قصته معروفة؛بما فيها من غرائب حقيقية أو مختلقة. لكن العنقري، مارس الحكم بطريقة مختلفة تماما، فقد نسى قوله أنه يرى رائحة الكنيف والمراحيض الخاصة والعامة أطيب بكثير من رائحة السلطة والحكم، و وجدها عطور وورود ريانة منعشة مسكرة، فتشبث بها بشراسة ومراوغة ومارسها بخبث وخسة ودهاء لم يتوقعه أحد منه، وثمة من وجد له عذرا أن الدولة العباسية آخذة في الانهيار مذ توارى هارون الرشيد عن بغداد، ويعرف معها ما هو أدهى وأمر وهو إن الخليفة اليوم ليس هو من يحكم بل ثمة عصابات وجماعات وقبائل وجيوش سرية وعلنية هي التي تملك السلطة من وراء جدار أو ستار وإنه إن وقف بوجهها سيضيع ويقتل بينها لا محالة! وإن عليه أن يحمي نفسه وسلطته بالانزلاق مع هؤلاء الحاكمين الحقيقيين للبلاد، فسلمهم مقادير البلاد مستمتعا بكونه يتقدم الم واكب، ومحط الأنظار، متظاهرا أنه لا يعلم أن في عهده تفاقمت الجرائم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

والموبقات والمظالم والقسوة والعسف، بينما صار معروفا للناس أنه متحالف وشريك لعصابات القتل والخطف والسرقة وقطع الطرق، تارة سرا وتارة علنا، وإنه هو لا العصابات يستولي على محاصيل الفلاحين والمزارعين والتجار ويحملهم فوقها الضرائب، وانه هو الذي فتح مجلسه لكثير من رجال الدين حتى أطاح بوقارهم، ليعج بالعمائم نهارا، وبالجواري والقيان والغلمان وموائد الشراب ليلا، آمرا الناس بالمغالاة بالفرائض الدينية من صوم وصلاة وشعائر وطقوس بحجة وجوب أن يكفروا عن ذنوبهم السابقة! وإنه هو الذي يسكت المعارضين بمنحهم وظائف أو مصالح تجارية وإذا لم يكفوا؛ يعمد إلى قتلهم أو تركهم للعصابات تخطفهم لتقتلهم وتبيع جثثهم لذويهم! ونسبت إليه فظائع نبش القبور وسرقة الأكفان وما حمل الموتى معهم من حلي أو تذكارات، وإنه هو الذي منع إزالة النفايات والفضلات عن الشوارع حتى أحال البلاد كلها إلى كنيف أو مرحاض كبير يضج بالنتانة والروائح العفنة. واستجلب الكثير من الشعراء والكتاب يقصدونه من أقاصي الممالك يمدحونه ويجعلونه في مصاف القديسين وأولياء الله الصالحين! ويعودون محملين بالذهب والحلل القشيبة، ويذكر أن احدهم بعد أن تعرضت البلاد لزلزال خفيف أصاب الناس بالذعر جاءه بقصيدة تضمنت بيتا محورا ينسب للمتنبي قيل أنه نظمه لكافور الإخشيدي:

ما زلزلت ارضي من شر الم بها لكنها رقصت من عدلكم طرباً

وسواء أن العنقري هو الذي قام بكل ذلك لا العصابات والمراكز الحاكمة من وراء جدار أو ستار، أو لم يقم بها؛ فإن كل هذه الجرائم والرذائل صارت تنسب إليه رغم أن بعضهم يقول أنه أضعف من أن يقوم بها فهو حتى الآن لا يقوى سوى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على إبريق الكنيف، وثمة من زعم أنه يعد احد أبنائه لخلافته وبالطبع كان ذلك فوق احتمال الناس. فلموا صفوفهم واستجمعوا إرادتهم وفجروا صبرهم وغضبهم لهبا كاسحاً فاقتحموا قصره وقتلوه ومثلوا بجثته وسحلوها في الشوارع، وأرسلوا إلى الخليفة المسترشد بالله كتابا يقولون فيه "أرسلت لنا أحقر من عندك لتهيننا وتذلنا، وها نحن نرسل لك أفضل ما عندنا: غضبنا المشتعل، وبعد الآن؛ أي يد أو أصبع منك تمتد إلينا؛ سنقطعها" قيل أن الرسالة وصلت بغداد ليلة مقتل الخليفة المسترشد بالله في حملة له في أصقاع همذان من بلاد فارس، حيث وقع أسيرا ودبر اغتياله بسكاكين عصابة من الحشاشين! كما إن ثورة البلد هذه راحت تلد ثورة بعد أخرى، فيتسلل إليها أسوأ الرجال والنساء مرة بلبوس قومية ومرة دينية ومذهبية ومرة بلبوس عساكر، وأحزاب، جارين على البلاد حروبا وهزائم، فتلاحقت نكباتها ونكساتها ومآسيها! وبالطبع لا يبدو كل ذلك غريبا الآن، الغ ريب هو أن الكثيرين رغم جدلهم الطويل حول أي بلد هو الذي حكمه العنقري، لم يشخصوه أو يحددوه بدقة، ثمة من يذكر أسماء بلدان كثيرة هنا أو هناك ف إمبراطورية الخليفة العباسي كما يقال لا تغيب عنها الشمس، رغم أنها تضعضعت وتفككت وآلت إلى غروب حزين عندما صار أهم حكامها بقاءهم في الحكم لا بقاء الناس وبلدانهم وسعادتهم! ولكن ثمة من قال إن البلد المقصود هي مدينة الذهب والنحاس التي لا أبواب لها ولا نوافذ والكائنة تحت سراب شاسع طويل لا يعلمه إلا الله من صحارى العرب والمسلمين، لكن كثيرين يسفهون هذا الاستنتاج ويعدونه خيالا كسولا طائشا، ويجمعون قولهم: "لا تذهبوا بعيدا فهي ليست سوى بغداد وأقاليمها"، ابحثوا عن خافيات الأمور وبواطنها، وحاولوا أن تروا ما خلف الجدران والستائر! فمن يحكمها هو ليس من يتقدم المواكب ويسك اسمه على النقود، وتُوقع باسمه المراسيم والبيانات ويدعى له بالتوفيق وطول

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العمر والمزيد من البأس والقوة من صدارة الدواوين، ومنابر المساجد!

***

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إبراهيم أحمد

قاص وروائي وكاتب عراقي ـ مواليد **هيت** ـ محافظة **الأنبار** ـ العراق 1942. خريج **كلية الحقوق** العام 1967.

بدأ النشر في الصحف عام 1965 وكتب الكثير من المقالات والتحقيقات الصحفية. وقصائد النثر ، وكتب برنامجا إذاعياً يوميا لإذاعة بغداد منذ عام 1968 واستمر حتى عام 1973،حيث أوقف من قبل السلطة آنذاك.

يُعد من ابرز رواد القصة القصيرة جداً في العراق. شكلت مجموعته)**عشرون قصة قصيرة جداً**(الصادرة عام 1976 عن دار الرواد انعطافة واضحة في هذا تيار القصة القصيرة جدا، التي أضحت فيما بعد تياراً واسعاً في العراق.

نشر له رجاء النقاش القصة القصيرة)**صفارات الإنذار في مدينة قابيش**(في مجلة الطليعة. عام 1973. في القاهرة منوهاً بها.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

اضطر تحت الملاحقة لمغادرة العراق سراً عام 1979. تنقل في المنافى بين سوريا والجزائر وهنغاريا، يسكن السويد منذ عام 1989. ويقيم في القاهرة لفترات.

مارس العمل السياسي والثقافي المباشر لعقود طويلة، وانخرط في نشاط المعارضة العراقية في الخارج ، وساهم بعملها التنظيمي والإعلامي.

اضطهد حكام بغداد عائلته. وصادروا بيته أوائل عام 1986 ومنعوا تداول كتبه.

أدرجت له قصص ضمن كتاب مدرسي مقرر على طلاب المدارس الثانوية في السويد عن أدب الشرق الأوسط. وتُرجمت له العديد من القصص إلى لغات مختلفة كالإنجليزية والألمانية والسويدية والنرويجية والروسية وغيرها..

على مدى سنوات المنفى الطويلة نشر قصصه و الكثير من المقالات والتحقيقات الصحفية في العديد من الصحف والمجلات العربية والأجنبية.

تم تحويل بعض من قصصه إلى أفلام سينمائية ونالت جوائز عالمية.

لديه روايات ومجموعات قصصية، وثلاث مجاميع شعرية من قصائد النثر ومقالات ثقافية وسياسية مُعدة للطبع.

- عضو اتحاد الأدباء العراقيين منذ عام 1970.
- عضو اتحاد الكتاب السويديين.منذ عام 1991.
- عضو نادي القلم العالمي. منذ عام 1995.

صدر له في العراق قبل المنفي:

1. **عشرون قصة قصيرة جداً** ـ قصص ـ 1976 ـ دار الرواد ـ بغداد.
2. **زهور في يد المومياء** ـ قصص ـ 1981 ـ وزارة الإعلام العراقية ـ بغداد. وقد حُذفت منها عدداً من القصص والفقرات.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صدر له في المنفي:

3. **صفارات الإنذار** ـ قصص ـ دار صحارى بيروت 1991.
4. **بعد مجيء الطير** ـ قصص ـ دار صحارى بيروت 1994.
5. **المرآة** ، ـ قصص ـ دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد 1995.
6. **طفل السي إن إن** رواية ـ دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد عام 1996.
7. **التيه في أيس** ـ قصص ـ دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد عام 1999.) جزء أول من **سيرة مدينة قديمة في أعالي الفرات**، والجزء الثاني **"العين السحرية"** معد للطبع(.
8. **لارا زهرة البراري** ـ قصص ـ دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى في السويد 2001.
9. **أنت تشبه السيد المسيح** ـ قصص ـ دار الشئون الثقافية العامة، بغداد 2004.
10. **الانحدار أو العقيد ومعجزته الأخيرة** ـ رواية ـ دار المنفى في السويد 2005.
11. **محاولة في تحليل المسألة الطائفية في العراق** ـ مقالات ـ منشورات تموز ، مالمو ، السويد 2006.
12. **قصة حب لزهرة الأوركيديا** ـ قصص ـ الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2008 ، طبعة ثانية دار فيشون السويدية.
13. **قطة بلا شعر** ـ قصص ـ دار فيشون ميديا 2010 السويد.
14. **ليلة الهدهد** ـ رواية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2013 طبعة ثانية دار فيشون السويدية.
15. **66 قصة قصيرة جدا** ـ قصص ـ دار العرب والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2015.
16. **قيثارة أجاثا كريستي** ـ رواية ـ دار العرب والدار العربية للعلوم

منشورات «الف باء AlfYaa»

ناشرون بيروت 2016

17. **متاهة الأذكياء " شاعران ودكتاتور"** ـ رواية ـ دار المتوسط ـ إيطاليا 2019

18. **أوتار العكاز)عثمان الموصلي(**ـ رواية ـ دائرة الشئون الثقافية وزارة الثقافة بغداد

19. **لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان** ـ قصص اتحاد الأدباء في العراق 2022

20. **ذكرياتي مع الجواهري: الوطن والمنفى** نُشرت في مجلة الأقلام العراقية على حلقات وقيد الطبع بكتاب ـ دائرة الشئون الثقافية وزارة الثقافة.

21. صدرت له مجموعة قصص مترجمة إلى السويدية بعنوان)**أنت تشبه السيد المسيح**(، عام 2010 عن دار فيشون في السويد. وبثت منها قصته **"حالة خاصة جدا "** عبر الإذاعة المحلية السويدية.

تحت الطبع

22. **"مقالات في ما فات وما مات"** منشورة في صحف مختلفة وتتناول وضع العراق الراهن.

منشورات «ألف باء AlfYaa»